إسلامية • ثقافية • شهرية تصدر عن جماعة أنصار السنة المحمدية العدد ٥٠٢ - السنة الثانية والأربعون - شوال ١٤٣٤هـ
الثمن جنيهان

التوحيد

نهاية رمضان ..
واشتداد المحن !!

الكلمة
بين الأمانة والحرية

وصايا وتنبيهات في ختام رمضان

معالم الهدى في أجواء الفتن

أعظم الكرامة لزوم الاستقامة

بسم الله الرحمن الرحيم

فاعلم أنه لا إله إلا الله

صاحبة الامتياز

جماعة أنصار السنة المحمدية

رئيس مجلس الإدارة

د.عبد الله شاكر الجنيدي

المشرف العام

د. عبد العظيم بدوي

اللجنة العلمية

جمال عبد الرحمن

معاوية محمد هيكل

د. مرزوق محمد مرزوق

التحرير

٨ شارع قولة عابدين. القاهرة

ت: ٢٣٩٣٦٥١٧ - فاكس: ٢٣٩٣٠٦٦٢

البريد الإلكتروني

MGTAWHEED@HOTMAIL.COM

رئيس التحرير:

GSHATEM@HOTMAIL.COM

قسم التوزيع والاشتراكات

ت: ٢٣٩٣٦٥١٧

ISHTRAK.TAWHEED@YAHOO.COM

المركز العام:

هاتف: ٢٣٩١٥٥٧٦-٢٣٩١٥٤٥٦

WWW.ANSARALSONNA.COM

بشرى سارة

تعلن إدارة المجلة عن رغبتها في تفعيل التواصل بينها وبين القراء في كل ما يتعلق بالأمور الشرعية لعرضها على لجنة الفتوى ونشرها بالمجلة على البريد الإلكتروني التالي: q.tawheed@yahoo.com

السلام عليكم

بالظلم تزول الدول

في وسط هذا الخضم المائج، والبحر الهائج، والفتن المتراكمة، والطموحات المتلاطمة، والفجوة الساحقة، والأحداث المتلاحقة، نسي الكثيرون أن للكون ملكًا وصاحبًا يحكم فيه بعدله، ويدبِّر شئونه، وييسِّر أموره، ويعلم سره وعلانيته، وهو سبحانه الذي رفع هذا ووضع هذا، فكم أعز ذليلاً! وأذل عزيزًا!!

إن حرم الله الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرمًا، وقواعد الملك لا تثبت إلا بالعدل، وتزولُ بالظلمِ الدولُ، فلم ينفع الكاذبَ كذبُه، ولا المنافقَ نفاقُه، ولا الظالمَ بطشُهُ، فقد أذن الله تعالى للعجلة أن تدور بسرعة، فاليوم خمرٌ وغدًا أمرٌ، اليوم في الذروة وغدًا في الهوة، وما أهون العباد على الله إذا هم خالفوه وعصوا أمره!!

كم من الملوك بات على عرشه جليسًا، وبتدبير الله أصبح رهن الأسر حبيسًا.

يا قوم؛ اتقوا الله.. اتقوا الله.. اتقوا الله.

التحرير

السنة الثانية والأربعون

العدد ٥٠٢ شوال ١٤٣٤

"في هذا العدد"

افتتاحية العدد: الرئيس العام ٢

كلمة التحرير: رئيس التحرير ٦

باب التفسير: د. عبد العظيم بدوي ١٠

باب السنة: د. مرزوق محمد مرزوق ١٧

درر البحار: علي حشيش ٢١

منبر الحرمين: د. صالح بن حميد ٢٣

من روائع الماضي: محمد صفوت نور الدين ٢٧

القصة في كتاب الله: عبد الرزاق السيد عيد ٣٠

فرحة العيد: عبده الأقرع ٣٢

مسائل فقهية: اللجنة الدائمة ٣٤

واحة التوحيد: علاء خضر ٣٦

باب الفقه: د. حمدي طه ٣٨

دراسات شرعية: متولي البراجيلي ٤١

وقفات مع حديث: المستشار أحمد السيد علي ٤٥

باب السيرة: جمال عبد الرحمن ٤٩

تحذير الداعية من القصص الواهية: علي حشيش ٥٣

المذهب الوسطي لأبي الحسن الأشعري في توحيد الصفات: د. محمد عبد العليم الدسوقي ٥٧

وصايا وتنبيهات في ختام شهر رمضان: عبد العزيز مصطفى الشامي ٦١

باب التراجم: صلاح نجيب الدق ٦٥

باب الفتاوى: اللجنة الدائمة ٦٩

الأمثال في القرآن: مصطفى البصراتي ٧١

رئيس التحرير

جمال سعد حاتم

مدير التحرير الفني

حسين عطا القراط

سكرتير التحرير

مصطفى خليل أبو المعاطي

التنفيذ الفني

أحمد رجب محمد

محمد محمود فتحي

ثمن النسخة

مصر ٢٠٠ قرشاً، السعودية ٦ ريالات، الامارات ٦ درهم، الكويت ٥٠٠ فلس، المغرب دولار أمريكي، الاردن ٥٠٠ فلس، قطر ٦ ريالات، عمان نصف ريال عماني، أمريكا ٢ دولار، أوروبا ٢ يورو

الاشتراك السنوي

١- في الداخل ٣٠ جنيهاً بحوالة فورية باسم مجلة التوحيد. على مكتب بريد عابدين مع إرسال صورة الحوالة الفورية على فاكس مجلة التوحيد ومرفق بها الاسم والعنوان ورقم التليفون

٢- في الخارج ٢٥ دولاراً أو ١٠٠ ريال سعودى أو مايعادلهما.

ترسل القيمة بسويفت أو بحوالة بنكية أو شيك على بنك فيصل الاسلامى فرع القاهرة. باسم مجلة التوحيد. أنصار السنة، حساب رقم ١٩١٥٩٠/ ٥

مفاجأة كبرى

تقدم للقارئ كرتونة كاملة تحتوي على ٤٠ مجلداً من مجلدات مجلة التوحيد عن ٤٠ سنة كاملة

٧٥٠ جنيهاً ثمن الكرتونة للأفراد والهيئات والمؤسسات داخل مصر و٢٦٠ دولاراً خارج مصر شاملة سعر الشحن

منفذ البيع الوحيد بمقر مجلة التوحيد الدور السابع

التوزيع الداخلي: مؤسسة الأهرام وفروع أنصار السنة المحمدية

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

مكانة القرآن وفضله

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعدُ:

فقد تحدثت في اللقاء السابق عن كتاب الله الكريم لارتباط القرآن بشهر رمضان ونزوله فيه، وفي هذا اللقاء أحببت أن أواصل الحديث عن القرآن الكريم؛ لأبرز جوانب أخرى من مكانته وفضله، ورغبة في أن لا ينقطع المسلم عن القرآن بعد شهر رمضان، فأقول وبالله التوفيق:

اشتمال القرآن الكريم على الهداية للبشر:

اشتمل القرآن الكريم على ألوان وأنواع الهداية للبشر جميعًا في الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى: « إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا » [الإسراء: ٩]، وهذا ثناء عظيم من الله تبارك وتعالى على كتابه، ودلت الآية أيضًا على أن الدين دين مستقيم، وهو أقومها، وقد أجاد وأفاد العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في بيان هدايات القرآن الكثيرة العظيمة، ومما قال: «إن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهدًا برب العالمين- جل وعلا- يهدي للتي هو أقوم...، وهذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها». [أضواء البيان ٤٠٩/٣].

ثم أشار رحمه الله إلى شيء منها، ومن ذلك:

توحيد الله سبحانه وإفراده بجميع أنواع العبادة بعد إفراده بالخلق والرزق والتدبير- جل في علاه-، ومنه أيضًا: توحيد الله في أسمائه الحسنى وصفاته العلى فهو وحده المتصف بصفات الجلال والكمال، المنزّه عن كل نقص وعيب، وقد ذكر الله في كتابه كثيرًا من الآيات الدالة على توحيده، وقد تضمنت الآيات الأسماء والصفات، فعلى العباد ضرورة الاهتداء بهدي القرآن في ذلك، والتمسك به، والسير على منوال السلف الصالح الذين أخلصوا العبادة لله، وعظموا الله بإثبات ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تأويل أو تحريف أو تشبيه.

وإني لأعجب غاية العجب بعد هداية القرآن للأمة من مخالفة أهل البدع لمنهج القرآن، ومما نشاهده اليوم من ألوان الشرك والبدع تتم عند القبور والمشاهد، من الرافضة والمتصوفة وغيرهم- وهم يظنون مع ذلك أنهم يحسنون صنعًا-، وقد هدى الله أهل السنة والجماعة إلى الحق في أصول الإيمان، فاتبعوا الدليل وعبدوا الرحمن.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم أن جعل للرجل في الميراث ضعف ما للمرأة؛ وذلك لأن الرجل يتحمل من الأعباء ما ليس على المرأة من النفقة، وبذل المهر، والقيام بما يجب عليه من لوازم الحياة للمرأة والأولاد، فاقتضى ذلك التفضيل، قال الله تعالى: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ » [النساء: ٣٤]، وهذا هو الشأن المعهود من الرجل، وهو أن يقوم بالكفاية والرعاية على المرأة، كما أنه يفرض عليه ما لا يفرض عليها من الجهاد، وهذا يتضمن توفير الحماية الكاملة لها ونحوه.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: ما جاء في التشريعات الربانية والحدود الشرعية ودعا القرآن إلى إقامتها، وذلك ليسلم الناس من البغي والظلم والعدوان، ويعيش الناس في أمن وأمان، وأحب أن أؤكد هنا للجميع أن تشريع الحكيم الخبير اللطيف مشتمل على جميع الحِكَم من درء المفاسد وجلب المصالح، والجري على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، وهو عام وشامل لكل من اقترف ذنبًا وضع الشارع له عقوبة، دون حصانة لأحد ، فالحدود تقام على الرئيس والمرءوس، والغني والفقير، والقوي والضعيف، فما أعظم هذا القرآن وتشريعه.

> القرآن يدعو للتقدم في جميع الميادين التي لها أهمية في دنيا ودين ، بآداب الدين وحدوده.

التمسك بالدين لا ينافي التقدم والرقي

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: هديه إلى أن التقدم والرقي، والسعي في الأرض لا ينافيه التمسك بالدين، فما خيّله أعداء الدين لضعاف العقول ممن ينتمي إلى الإسلام: من أن التقدم لا يمكن إلا بالانسلاخ من دين الإسلام- باطل لا أساس له-، والقرآن يدعو إلى التقدم في جميع الميادين التي لها أهمية في دنيا أو دين، ولكن ذلك التقدم في حدود الدين، والتحلي بآدابه الكريمة، وتعاليمه السماوية، وإليكم مثالًا على ذلك، قال الله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » [سبأ: ١٠- ١١]، فقوله: « أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ » [سبأ: ١١] يدل على الاستعداد لمكافحة العدو، وقوله: «وَاعْمَلُوا صَالِحًا » [سبأ: ١١] يدل على أن ذلك الاستعداد لمكافحة العدو في حدود الدين الحنيف، وداود عليه السلام من الأنبياء المذكورين في سورة الأنعام، وقد قال الله تعالى مخاطبًا نبينا صلى الله عليه وسلم بعد أن ذكرهم: «أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ » [الأنعام: ٩٠]، وهذا من شمولية الإسلامية وتوازنه الذي يجمع بين الدين والدنيا، ويوفق بينهما دون تعارض أو تباين، ويظهر هذا واضحًا جليًا في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الكلمات كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: ((اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِيَ الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ)). [مسلم: ٢٧٢٠]. وهذا الحديث من الأدعية الجامعة للخير في الدين والدنيا والآخرة.

الرابطة الحقيقية هي رابطة الدين:

ومن هدي القرآن الكريم للتي هي أقوم: هديه إلى أن أهم رابطة تربط بين أفراد المجتمع هي دين الإسلام؛ لأنه هو الذي يربط بين أفراد المجتمع حتى يصير بقوة تلك الرابطة جميع المجتمع الإسلامي كأنه جسد واحد، كما جاء في الحديث المتفق عليه عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا

اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى). [البخاري: ٦٠١١، ومسلم: ٢٥٨٦].

وقد كثر في القرآن الكريم إطلاق النفس وإرادة الأخ تنبيهًا على أن رابطة الإسلام تجعل أخا المسلم كنفسه، كقوله تعالى: «لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ» [النور: ١٢]. وقد جعلت الآية أهل الإيمان كالنفس الواحدة، فإذا وقع بأحدهم مكروه فكأنه وقع على جميعهم.

ومن الآيات الدالة على أن الرابطة الحقيقية هي الدين، وأن تلك الرابطة تتلاشى معها جميع الروابط النسبية والعصبية ما جاء في قوله تعالى: «لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ» [المجادلة: ٢٢]، والمعنى: لا تجد قومًا جامعين بين الإيمان بالله واليوم الآخر، وبين موادة أعداء الله ورسوله، وقد أكد ذلك النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة منها: ما رواه البخاري عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمَّعَهَا اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالُوا: كَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ يَا لَلْأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ. [البخاري: ٤٩٠٥].

فقول هذا الأنصاري: يا للأنصار، وهذا المهاجري: يا للمهاجرين، هو النداء بالقومية العصبية بعينه، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (دعوها فإنها منتنة)، يقتضي وجوب ترك النداء بها، وأن النداء بها مخالف لما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم وأنها قبيحة خبيثة مستقذرة.

> أهل الجاهلية كانوا يأخذون حقوقهم بالعصبات والقبائل، فأبطل الإسلام ذلك بالأحكام الشرعية .

وفي رواية مسلم عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع الأنصاري والمهاجري يقولان ذلك، قال: «مَا هَذَا دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ!». [مسلم: ٢٥٨٤].

وهذا يدل على أن أهل الجاهلية كانوا يأخذون حقوقهم بالعصبات والقبائل، فجاء الإسلام بإبطال ذلك وفصل القضايا بالأحكام الشرعية، فإذا اعتدى إنسان على آخر حكم القاضي بينهما وألزمه مقتضى عداوته كما هو مقرر في قواعد الإسلام. [انظر شرح النووي على مسلم ١٦/١٣٧].

ويفهم من رواية صحيح مسلم أن زعماء ورؤساء الدعاة إلى القومية هم رؤساء الكفرة كأبي جهل وأبي لهب والوليد بن المغيرة وغيرهم، وقد علق العلامة القرآني محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله على الآيات والأحاديث السابقة بكلام نفيس قال فيه: «واعلم أنه لا خلاف بين العلماء في منع النداء برابطة غير الإسلام، كالقوميات والعصبيات النسبية، ولا سيما إذا كان النداء بالقومية يُقصد من ورائه القضاء على رابطة الإسلام وإزالتها بالكلية....

وقد بيَّن الله جل وعلا في محكم كتابه: أن الحكمة في جعله بني آدم شعوبًا وقبائل هي التعارف فيما بينهم، وليست هي أن يتعصب كل شعب على غيره، وكل قبيلة على غيرها، ونحن حين نصرح بمنع النداء بالروابط العصبية والأواصر النسبية، ونقيم الأدلة على منع ذلك لا ننكر أن المسلم ربما انتفع بروابط نسبية لا تمت إلى الإسلام بصلة، كما نفع الله نبيه صلى الله عليه وسلم بعمه أبي طالب، وقد قال أبو طالب للنبي صلى الله عليه وسلم:

والله لن يصلوا إليكم بجمعهم
حتى أُوَسَّد في التراب دفينا

وقد نفع الله بتلك العصبية النسبية شعيبًا عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام كما قال تعالى عن قومه: «قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ» [هود: ٩١]، ومما يوضح ذلك أن الرابطة الحقيقية هي دين الإسلام قوله تعالى في أبي لهب عم النبي صلى الله عليه وسلم: «سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ» [المسد: ٣]. ويقابل ذلك بما لسلمان الفارسي من الفضل والمكانة، وبالجملة: فلا خلاف بين المسلمين أن الرابطة التي تربط أفراد أهل الأرض بعضهم ببعض، وتربط بين أهل الأرض والسماء هي رابطة «لا إله إلا الله»، فلا يجوز البتة النداء برابطة غيرها. [انظر أضواء البيان ٣/٤٤١- ٤٤٨].

حل المشاكل العالمية بأقوم الطرق وأعدلها:

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: هديه إلى حل المشاكل العالمية بأقوم الطرق وأعدلها، ويضيق المقام عن ذكر المشاكل وحلها، ولذلك سأذكر فقط ثلاثًا منها، وكيف قدم القرآن لها الحل النافع المفيد.

> استغرب الصحابة ما حدث في هزيمة أُحُد فبيّن لهم القرآن أن ما أصابهم من مصيبة كان من عند أنفسهم .

المشكلة الأولى:

ضعف المسلمين في العدد والعدة في مواجهة الكافرين، وعلاج القرآن لهذه المشكلة يتمثل في صدق التوجه إلى الله، وقوة الإيمان به والتوكل عليه، واستعمال الوسائل الصحيحة الممكنة، ومن الأدلة المبينة لذلك: أن الكفار لما حاصروا المؤمنين في المدينة حصارًا قويًا ذكره الله في قوله: «إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا» [الأحزاب: ١٠- ١١]، والعلاج الذي حل هذه المشكلة وواجه هذا الحصار تمثل في قوة الإيمان والتسليم لرب الأرض والسماء، مالك القوى والقدر، قال الله تعالى: «قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا» [الأحزاب: ٢٢].

المشكلة الثانية:

تسليط الكفار على المؤمنين وإيذاؤهم، مع أن المسلمين على الحق والكفار على الباطل، وقد استشكل الصحابة رضوان الله عليهم ذلك لما نال الكفار منهم في غزوة أحد، فبين القرآن الكريم سبب ذلك ومنه يعرف الحل والعلاج.

قال الله تعالى: «أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [آل عمران: ١٦٥]، وقوله تعالى: «قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ» [آل عمران: ١٦٥] فيه إجمال بينه بقوله: «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ» [آل عمران: ١٥٢]، وعليه يجب على المسلم أن يجتنب أسباب الفشل التي أشارت لها الآيات.

المشكلة الثالثة:

اختلاف القلوب الذي هو من أعظم الأسباب في هزيمة الأمة الإسلامية، وقد بيَّن الله تعالى أن سبب هذا الداء الذي عمت به البلوى هو ضعف العقل كما يفهم من قوله: «تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ» [الحشر: ١٤]، ولا شك أن ضعف العقل يضعفه عن إدراك الحقائق، وتمييز الحق من الباطل، والنافع عن الضار، وعلاج ذلك الاهتداء بنور الوحي، كما قال الله تعالى: «أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا» [الأنعام: ١٢٢].

نسأل الله أن يهدينا بنور الوحي إلى طريق الحق.

كلمة التحرير

نهاية رمضان.. واشتداد المحن!!

بقلم
رئيس التحرير
جمال سعد حاتم
GSHATEM@HOTMAIL.COM
GSHATEM@HYAHOO.COM

الحمد لله الذي حرَّم الظلم على نفسه، وجعله بين عباده محرَّمًا، وبعدُ:

فما أسْرَعَ ما تنقضي الليالي والأيام، وما أعجل ما تنصرم الشهور والأعوام، وهكذا حال الدنيا، سريعة الزوال، قريبة الاضمحلال، لا يدوم لها حال، ولا يطمئن لها بال، وهذه سنة الله في خلقه، أدوار وأطوار تجري بأجل مسمى، ﴿وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

فعن قريب نودع رمضان، وكأنه طيف خيال، ما أعجل ما انقضى! وما أسرع ما انتهى! تنطوي صحيفته، وقد ربح فيه من ربح، وخسر فيه من خسر، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩- ١٠].

يمضي رمضان بين آهات وأحزان، قلوب تتفطر، وعقول تتحير، والدماء تسيل، هان الأخ على أخيه، وهان الصديق على صديقه، بل هان الإنسان على نفسه، أُريقت الدماء في بقاع كثيرة من أرض مصر، تاهت العقول، وانتشرت الفتن، وخربت الذمم!!

فاللهم إنا نشكو إليك ضعف قوتنا، وقلة حيلتنا، وهواننا على الناس، نسألك برحمتك يا رب العالمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربنا، إلى من تكلنا؟ إلى بعيد يتجهمنا، أم إلى عدوٍّ ملكته أمرنا؟ إن لم يكن بك غضب علينا فلا نبالي، ولكن عافيتك أوسع لنا، نعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمرُ الدنيا والآخرة، من أن يحلَّ بنا سخطك أو ينزل علينا عذابك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!!

أيام المرء حبل ممدود

يمضي رمضان، وينسى المرءُ أن أيامه حبلٌ ممدود، لا يدري متى ينقطع، وطرفا هذا الحبل ماضٍ ومستقبل، فلربما التفت إلى الماضي وهو يتحسر علَيه فيقنط أو يحزن عليه فيكسل، ولربما التفت إلى المستقبل مُشرئبًا إلى معرفته قبل أوانه وتذوّقه قبل إبانه، وسريعًا ما يتذكر أنه ليس له إلا الحاضر الذي يعيش فيه؛ لأن أمس الماضي لا يجد لذته ولا يُحس بشدته، ولأن المستقبل غيبٌ والأمرُ فيه على خطر، فما للمرء إذن إلاَّ الساعة التي يعيشها، فلن يستطيع ردَّ الأمسَ، ولا تعجيل الغدَ، فلا يجب البكاء على اللبن المسكوب!!

يمضي رمضان، ويمضي معه الزمان، وعام تلو عام، والخطب شديد، والفتن جاثمة على الصدور،

ما أسْرَعَ ما تنقضي الليالي والأيام، وما أعجل ما تنصرم الشهور والأعوام، وهكذا حال الدنيا، سريعة الزوال، قريبة الاضمحلال، لا يدوم لها حال، ولا يطمئن لها بال، وهذه سنة الله في خلقه، أدوار وأطوار تجري بأجل مسمى، ولكل أجل كتاب.

والغفلة والهوان، والبغضُ والخسران أصبح هو العنوان، والمرء ما دام ذا روح يقلبها فهو يعيش على أمر قد قُدِّر له، لا يخلو فيه من مصيبة، وقلما ينفك عن حدوث أمور عجيبة!!

يمضي رمضان وحال مصر قد خيَّم عليه الحزن الذي يُشعر المرءُ بأن النهار لن يُدْرك الليل، وأن الليل لن يعقبه نهار، ليجعل الدقيقة ساعات طويلة، ويا لله ما أطول الليل على من لم ينم!! والهم والحزن أصبح يَخْتَرِمُ الجسيم نحافة، ويشيبُ ناصية الصبي ويهرم!!

يمضي رمضان والدماء المحرمة تسيل بقسوة وحمق، دون مراعاة لحرمتها، والقتل والحرق والفتن تهب ريحها البغيضة، وتامر تبدو أطرافه في الداخل ومن الخارج عبر تدخل سافر في شئون مصر، ومحاولات أوروبية وأمريكية قبيحة لفرض الوصاية وممارسة الضغوط على مصر في محاولة لإذلالها وإضعافها، وتهميش وتفتيت جيشها، ومندوب أمريكي، يتلوه مندوب أوربي، يأتي ويروح، وكأن مصر قد أصبحت ولاية من ولايتهم، وأهل مصر قد هانت عليهم فاستقوى البعض بهم وهم لنا كارهون، وعلى الإسلام حاقدون، كنا بالأمس أمة يحسب لها العالم كله حسابًا، فأصبحنا أقوامًا وفرقًا وكتلًا وأحزابًا يتصارع من أجلها الصغير والكبير، وكأنها فريسة قد وقعت!!

كم من منح في طيات المحن!!

يمضي رمضان وتزداد الخطوب، ولكن من يدري فرُبَّ ضارةٍ نافعة! وربما صحت الأجسام بالعلل! ورب محنةٌ في طيها منحة! وكم بسمةٍ كانت بعد غصَّة! ورُب فرحة بعد ترحة! والأمل في الله رب العالمين لا ينقطع مهما حدث.

واطمئن؛ فإن الحوادث والكوارث والخطوب والمحن والفتن التي تمر بها مصر وشعبها لن ينالك منها إلا ما كُتب لك، ولن يصرف عنك منها إلا ما كُتب أن يُصرف عنك، ألم تدر أن عواقب الأمور تتشابه في الغيوب؟! فرُبَّ محبوب في مكروه، وربُّ خير من شرّ، ﴿وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقفات مع النفس.. وعودة عن الغيّ!!

يمضي رمضان.. ويولي مرتحلًا.. يذهب بأعمالنا شاهدًا بما أودعنا فيه، فيا ترى قد رَحَل حامدًا الصنيع أو ذامًا التضييع؟!

ألا ما أحوج الأمة المصرية إلى وقفات للمحاسبة الجادة والدائمة والمراقبة المستمرة، ومراجعة النفس وتقوى الله، والمحافظة على الهوية الإسلامية لمصر وشعبها، ووقف الهجمة الشرسة على الإسلام وأهله، والازدراء المخزي لهوية مصر، ومحاولة تمييعها وسط الأحداث المتلاحقة، والآلام الناخرة في عظام كل المصريين، فالعمر قصير، والحساب عسير، وسنقف أمام رب عليم بظواهر الأمور وبواطنها، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، وعرض الدنيا زائل، والكرسي إلى زوال، مهما طال الأمد، فالعمر قصير وسيحاسب الجميع على الصغير والقطمير.

فما أحوجنا إلى التأمل، ومراجعة أحوالنا، والتفكر في الشئون والأوضاع، وقفاتٍ تستلهم منها الأمة العبر والعظات مما حلَّ وفات، وكثرت معه الآهات، وقفات تبصرها بواقعها المؤلم الموحش، وخطوات مستقبلها، ومعالم حاضرها وغدها، وضرورة طيِّ صفحة الماضي البغيض الذي لا نريد له امتدادًا، فالإيلام أصبح موحشًا، ولنتخذ من نهاية هذا الشهر الكريم العِبَر والعظات، فنهاية رمضان فرصة للرجوع، وفرصة يجب على الأمة أفرادًا وجماعات حكامًا ومحكومين، من هم في السلطة الآن.. ومَن كانوا... ومن هم لها منتظرون، أن يتخذ

يمضي رمضان.. وما زلنا ننتظر فرجًا من عند علام الغيوب، ينزع فتيل الفتنة، حتى تزول الغمة، وتعلو الهمة، وتسود روح المصالحة، ويتم محاسبة من أجرم في حق مصر وأهلها وشعبها.

الجميع منها جسرًا لبذل الجهود، وإصلاح الأوضاع قبل فوات الأوان، وانقلاب الأزمان!! يمضي رمضان.. وما زلنا ننتظر فرجًا من عند علام الغيوب، ينزع فتيل الفتنة، حتى تزول الغمة، وتعلو الهمة، وتسود روح المصالحة، ويتم محاسبة من أجرم في حق مصر وأهلها وشعبها، وقد أسعدني أثناء كتابة تلك السطور اتصال تليفوني بالدكتور عبد الله شاكر، رئيس مجلس شورى العلماء، حين أبلغني بقطع الشيخ محمد حسان لرحلة العمرة، وعودته إلى مصر، وبمجرد نزوله من الطائرة جرت الاتصالات بالمشايخ والعلماء من أعضاء مجلس شورى العلماء لعقد جلسة عاجلة، يضع خلالها العلماء والمشايخ في المجلس تفاصيل مبادرة لحقن الدماء التي تنزف كل ساعة على أرض مصر، مبادرة تدعو للحفاظ على هوية مصر الإسلامية، وتصدع الفتن التي انتشرت في أنحاء البلاد، أدعو الله أن يُبارك في جهودهم، إنه جواد كريم!!

المؤمن يتقلب بين الطاعات

يمضي رمضان.. ومن فضل الله على عباده تتابع مواسم الخيرات، ومضاعفة الحسنات، فالمؤمن يتقلب في ساعات عمره بين أنواع العبادات والقربات، فلا يمضي من عمره ساعة إلا ولله فيها طاعة من الطاعات، وما إن يفرغ من عبادةٍ إلاَّ ويشرع في عبادة أخرى، ولم يجعل الله حدًا لطاعة العبد إلا انتهاء عمره، وانقضاء أجله، يقول الله جل وعلا: «وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» [الحجر: ٩٩]، وهذه هي حقيقة الاستقامة التي وعد الله أصحابها بالنجاة والفوز بعالي الدرجات، فقال سبحانه: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ» [فصلت: ٣٠، ٣٢].

فوائد ومعان لصيام الست من شوال

ومما مَنَّ الله به على عباده بعد انقضاء شهر الصيام والقيام، ورتَّب عليه عظيم الأجر والثواب: صيام ستة أيام من شوال التي ثبت في فضائلها العديد منَ الأحاديث، منها ما رواه أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ» [مسلم: ١١٦٤].

وفي رواية لابن ماجه عن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من صام ست أيام بعد الفطر كان تمام السنة»، «مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا» [الأنعام: ١٦٠]. [والحديث صححه الألباني في صحيح الترغيب ١٠٠٧].

ولصيام الست من شوال فوائد ومعان نذكر منها: أن العبد يستكمل بصيامها أجر صيام الدهر كله، وذلك لإن الحسنة بعشر أمثالها، فشهر رمضان يعدلُ عشرة أشهر، وهذه الأيام الستة تعدل شهرين، وقد ثبت ذلك في صحيح الجامع: «جعل الله الحسنة بعشر أمثالها، الشهر بعشرة أشهر، وصيام ستة أيام بعد الشهر تمام السنة» [صحيح الجامع ٣٠٩٤].

ومنها: أن صيام النفل قبل وبعد الفريضة يكمل به ما يحصل في الفرض من خلل ونقص، فإن الفرائض تُجبر وتكمل بالنوافل يوم القيامة، كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه متعددة.

ومن الفوائد أيضًا: «أن معاودة الصيام بعد رمضان من علامات القبول، فإن الله إذا تقبل عمل عبدٍ وفَّقه لعمل صالح بعده، كما قال بعضهم: ثواب الحسنة الحسنة بعدها، فمن عمل حسنةً ثم أتبعها بحسنة بعدها كان ذلك من علامات القبول للحسنة الأولى».

ومنها: أن معاودة الصيام بعد الفطر فيه شكر لله جل وعلا على نعمته بإتمام صيام رمضان، ومغفرة الذنوب، والعتق من النار، وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده أن يشكروه على هذه النعم العظيمة، فقال سبحانه: «وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» [البقرة: ١٨٥]، فمن جملة شكر العبد لربه على توفيقه لصيام رمضان وإعانته عليه ومغفرة ذنوبه، أن يصوم له عقب ذلك.

ومن الفوائد كذلك: المداومة على فعل الخيرات، وعدم انقطاع الأعمال التي كان العبدُ يتقرب بها إلى ربه في رمضان بانقضاء الشهر، ولا شك أن أحب الأعمال إلى الله ما داوم عليها صاحبها. [صحيح سنن أبي داود للألباني ١٣٦٨].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا عمل عملاً أثبته، وسُئلت عائشة رضي الله عنها عن عمله عليه الصلاة والسلام فقالت: «كان عمله ديمة». [متفق عليه]، أي دائمٌ ومستمرٌ وغير منقطع.

ومن أجل هذا المعنى ذم السلف من انقطع عن العمل الصالح بعد رمضان، فقد قيل لبشر: «إن قومًا يتعبدون ويجتهدون في رمضان، فقال: بئس القوم لا يعرفون الله حقًا إلا في رمضان».

وصيام الأيام الستة ليس له وقت محدود من شوال، بل يصومها المسلم في أي وقت من الشهر، في أي جزء من أجزائه، وله كذلك أن يصومها متتابعة أو مفرقة، ولكن الأفضل أن يبادر إلى صيامها عقب عيد الفطر مباشرة، وأن تكون متتابعة- كما نص على ذلك أهل العلم، لأن ذلك أبلغ في تحقيق الاتباع الذي جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: «ثم أتبعه»، كما أنه من المسابقة إلى الخيرات والمسارعة في الطاعات الذي جاءت النصوص بالترغيب فيه والثناء على فاعله، وهو أيضًا من الحزم الذي هو من كمال العبد، فإن الفرص لا ينبغي أن تفوّت، والمرء لا يدري ما يعرض له من شواغل وقواطع تحول بينه وبين العمل، فإن أخرَّها أو فرقها على الشهر حصلت الفضيلة أيضًا.

ومن كان عليه قضاء من شهر رمضان فعليه أن يبدأ بقضاء ما عليه أولاً لأن الواجب أولى بالأداء من النافلة، وهذا على سبيل الاستحباب، فإن أخر قضاء الواجب جاز له ذلك؛ لأن قضاء رمضان واجب على التراخي؛ فعن أبي سلمة قال: سمعت عائشة رضي الله عنها تقول: كان يكون عليَّ الصوم من رمضان فما أستطيع أن أقضي إلا في شعبان. قال يحيى: الشغل من النبي أو بالنبي صلى الله عليه وسلم. [صحيح البخاري ١٨٤٩].

يجب أن تكون وحدة المسلمين، والتآلف بينهم ، ونبذ الفرقة والخلاف، والتجرد من الانتماءات والأفكار على اختلاف أهوائهم، غاية كبرى وهدفًا أساسًا، ومصلحة عليا، ونهجًا ثابتًا حتى تنقشع الفتنة وتزول الغمة، ويسود الأمان والاستقرار، فانبذوا الفرقة واتحدوا .

ضرورة الاتحاد ونبذ الفرقة

وختامًا: فإن ما يجري على الساحة في مصر أرض الكنانة من أحداث لهو نذير خطير لا تفيد معه المسكنات، بل قد تؤخر المعاناة نوعًا ما، لكنها لا تعالج أساس المشكلات، ولا تمنع وقوعها مجددًا، فيجب أن تكون وحدة المسلمين، والتآلف بينهم ، ونبذ الفرقة والخلاف، والتجرد من الانتماءات والأفكار على اختلاف أهوائهم، غاية كبرى وهدفًا أساسًا، ومصلحة عليا، ونهجًا ثابتًا حتى تنقشع الفتنة وتزول الغمة، ويسود الأمان والاستقرار، فانبذوا الفرقة واتحدوا، اللهم احفظ مصر وأهلها، وأعز الإسلام والمسلمين، وأذل الشرك والمشركين، وارحم حوزة الدين، اللهم انصر دينك وكتابك، وسنة نبيك وعبادك المؤمنين، اللهم اجمع كلمة المصريين على الحق، اللهم آمين، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة غافر

الحلقة الرابعة

قال تعالى: « وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) ۞ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » [غافر: ٣٠- ٤٤]

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

ولم ييأس الرجل المؤمن، فعاد ينصح ويذكر، « مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » [الأعراف: ١٦٤]:

«وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ» الذين أشار الله تعالى إليهم في أول السورة، حيث قال: « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ» [غافر: ٥].

فالرجل المؤمن يخوف قومه أن يصيبهم مثل ما أصاب الذين من قبلهم، «مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ» أهلكهم الله بذنوبهم، وكل كانوا ظالمين، «وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ»، فقد حرم سبحانه الظلم على نفسه،وصرح بذلك كثيرا في كتابه، كما في قوله: « وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ » [القصص: ٥٩]، وقال تعالى: « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » [يونس: ٤٤].

ولما خوفهم عذاب الدنيا، انتقل إلى تخويفهم من عذاب الآخرة، مكررًا نداءهم استعطافا لهم واسترحامًا، ليشعروا بأنه منهم، حريص عليهم، فقال: «وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ»، يعني يوم القيامة، قرأ «التَّنَادِ» بتخفيف الدال، من النداء، سُمي يوم القيامة بذلك للنداءات التي تكون فيه، ومنها قوله تعالى: « وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ » [ق: ٤١]، وقوله تعالى: « وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » [الأعراف: ٤٤]، وقوله تعالى: « وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ » [الأعراف: ٤٨]، وقوله تعالى: « وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ » [الأعراف: ٥٠].

وقرأ «التَّنَادّ» بتشديد الدال، من : ندَّ يندُّ، إذا شرد وهرب، «يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ».

وكأن الرجل المؤمن لم ير استجابة، ولم يستشعر منهم قبولا، فقال لنفسه: «وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ»، كأنه يقول: لقد حرصت علي هدايتكم، ولكن الله أضلكم، «وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ»، كما قال الله تعالى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وكان حريصًا على هداية عمه أبي طالب، فلما مات على الكفر قال الله له: « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » [القصص: ٥٦].

ومع ذلك استمر رضي الله عنه في وعظهم وتذكيرهم، فقال:

«وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ» كما جاءكم موسى بالبينات، «فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ»، كما شككتم فيما جاءكم به موسى، «حَتَّى إِذَا هَلَكَ» أي مات يوسف عليه السلام «قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا»! فعلى أي شيء استندتم في قولكم هذا؟ وما هو دليلكم؟ «كَذَلِكَ» أي: كما أضل الله تعالى فرعون وملأه، «يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ» وهم «الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ»، والجدال بغير حجة ولا برهان عمل ممقوت، ممقوت أهله، ولذلك قال: «كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا» والمقت البغض الشديد، «كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ»: فذو القلب المتكبر الجبار يطبع الله عليه، فلا يرى الحق حقا، ولا يرى الباطل باطلا، وربما رأى الحق باطلا، والباطل حقا!! كما قال تعالى: « سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا » [الأعراف: ١٤٦]، والسبب في صرفهم عن آيات الله هو تكذيبهم بها، ولذلك قال تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ » [الأعراف: ١٤٦].

وقد صرح ربنا سبحانه بهذه العلة للطبع على قلوب القوم في أكثر من آية، قال تعالى: «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » [الصف: ٥]، وقال تعالى: « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ » [المنافقون: ٣]، وقال تعالى: « وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » [الأنعام: ١١٠].

موعظة بليغة:

« وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) ۞ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١)

«تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ» [غافر: ٣٦- ٤٦]:

بعد هذه الموعظة البليغة من الرجل المؤمن أراد فرعون أن يتظاهر بالبحث عن الحقيقة، فنادي علي وزيره: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا»:

الصرح: القصر المشيد، والبرج العالي الرفيع، زعم فرعون أنه يريد الصعود إلى السماء للبحث عن إله موسى، الذي يدعوهم إلى عبادته، وترك عبادة فرعون، وصرح باعتقاده كذب موسى، ولكن ليبرئ ساحته أمام قومه، وأنه حين يصر على أن لا إله لهم غيره، فإنما يصر بعد بحث، فتقر هذه الحقيقة في قلوبهم.

وفي محاولته الصعود إلى السماء دون أية جهة أخرى دليل على أن موسى عليه السلام قد صرّح لهم بأن ربه في السماء، وبذلك تكون هذه العقيدة، عقيدة أن الله في السماء، على العرش استوى، عقيدة موسى صلى الله عليه وسلم، كما أنها عقيدة محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: «وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ» من الشرك والتكذيب، والصد عن سبيل الله،«وَصُدَّ» هو «عَنِ السَّبِيلِ» سبيل الهدى والرشاد، «وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ» الذي يكيد به لموسى ليبطل ما جاء به من الحق من عند ربه، «إِلَّا فِي تَبَابٍ» وخسار، وما هو ببالغ ما يريد، كما سيجيء في قول الله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ».

ووجد الرجل المؤمن نفسه مضطرًا إلى التصريح بإيمانه، والتصريح بدعوتهم إلى اتباعه، بعد ما لم ينفع التلميح، ولكنه لم يترك أسلوب الاستعطاف والاسترحام:

«وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ»، فهو بذلك يكذب فرعون في قوله السابق: «وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ»، فسبيل الرشاد هو ما جاء به موسى، وما يدعوهم إليه ذلك المؤمن، لا ما يدعوهم إليه فرعون، ثم رغّبهم في اتباعه ببيان حقيقة الدنيا والآخرة، ليؤثروا الآخرة على الدنيا، فقال: «يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ».

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يُسْتَمْتَعُ بِهَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ، ثُمَّ تَنْقَطِعُ وَتَزُولُ، وَأَمَّا الْآخِرَةُ فَهِيَ دَارُ الْقَرَارِ وَالْبَقَاءِ وَالدَّوَامِ، وَحَاصِلُ الْكَلَامِ أَنَّ الْآخِرَةَ بَاقِيَةٌ دَائِمَةٌ، وَالدُّنْيَا مُنْقَضِيَةٌ مُنْقَرِضَةٌ، وَالدَّائِمُ خَيْرٌ مِنَ الْمُنْقَضِي. وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا ذَهَبًا فَانِيًا، وَالْآخِرَةُ خَزَفًا بَاقِيًا، لَكَانَتِ الْآخِرَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا، فَكَيْفَ وَالدُّنْيَا خَزَفٌ فَانٍ، وَالْآخِرَةُ ذَهَبٌ بَاقٍ. [التفسير الكبير (٢٧/ ٥١٨)].

قانون الجزاء:

ثم ذكر رضي الله عنه قانون الجزاء الذي يجزي الله به عباده يوم القيامة، فقال: «مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ»:

قَالَ الزمخشري-عفا الله عنه-: قوله: «بِغَيْرِ حِسَابٍ» واقع في مقابلة «إِلَّا مِثْلَهَا»، يعني: أن جزاء السيئة لها حساب وتقدير، لئلا يزيد على الاستحقاق، فاما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب، بل ما شئت من الزيادة على الحق والكثرة والسعة. [الكشاف(٣/ ٣٧٢)].

ويدل عليه قوله تعالى: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» [الأنعام: ١٦٠]، وقوله تعالى: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» [النساء: ١٧٣].

ثم أنكر الرجل المؤمن على قومه إصرارهم على الكفر والشرك، فقال:

«وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ»؟! ثم فسّر قوله هذا بقوله: «تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ»:

ولا شك في أن من دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الهلاك والخسران، والعذاب المهين، فقد قال تعالى: «إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ» [المائدة: ٧٢]، ولما حذّرنا ربنا سبحانه من اتباع الشيطان قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ» [فاطر: ٦]، والشيطان لم يدعُ صراحة إلى عذاب السعير، وإنما دعاهم إلى عبادة غير الله، ولذلك قال عن فرعون وقومه: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ» [القصص: ٤١]، فكانت تلك دعوتهم له، أما هو رضي الله عنه فهو يدعوهم إلى النجاة من النار، والفوز بالجنة، وذلك بالإيمان بالله العزيز، الذي لا يعجز عن شيء، ولا يُعجزه شيء، فإذا أراد أن يعذب من كفر به عذبه، «وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ» [الرعد: ٣٤]، وهو سبحانه مع عزته غفار لمن استغفره، كما قال تعالى: «وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا» [النساء: ١١٠].

«لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ» يقول رضي الله عنه: حقًا، انما تدعونني إلى عبادته من الأوثان لا يستجيب لداعيه إذا دعاه في الدنيا، ولا يستجيب له أيضًا إذا دعاه في الآخرة، كما قال تعالى: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ» [الأحقاف: ٥]، وقال تعالى: «وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا» [الكهف: ٥٢]، ومن لا يستجيب لمن دعاه ليس بإله.

ثم ذكّرهم رضي الله عنه بالرجوع إلى الله، وخوّفهم من عذابه، فقال: «وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ»، «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى» [النجم: ٣١]، «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا» [النساء: ١٧٣]، ولذلك قال الرجل المؤمن: «وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ».

ثم أعلمهم أنه قد بذل جهده في النصح لهم، ولم يدخر وسعًا في دعوتهم، فإن لم يستجيبوا له فسيندمون في وقت لا ينفع فيه الندم، فقال: «فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ» إذا عاينتم العذاب، وعُرضتم على النار، وستعلمون أنني كنت على الحق، وعلى صراط مستقيم، ولن تنفعكم الذكرى، كما قال تعالى: «كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ» [الفجر: ٢١ - ٢٣].

ولما فرغ رضي الله عنه من موعظته، ورأى أنهم قد أصرُّوا على الكفر، واستكبروا عن الإيمان، وعلم أنهم غير تاركيه، فرَّ إلى الله، ولجأ إليه، واعتصم به، فقال: «وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ» يعلم المصلح من المفسد، والبر من الفاجر، والمؤمن من الكافر.

وللحديث بقية إن شاء الله والحمد لله رب العالمين.

حكم أعمال البورصة

الحلقة الثانية

إعداد/ د. علي السالوس

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه، وبعدُ:

فقد تحدثنا في لقاءٍ سابق عن أحكام البيع، ونشأة البورصة، وعن معنى الأسهم، ونكمل حديثنا عن البورصة فنقول وبالله تعالى التوفيق:

كيف يتم الشراء في البورصة؟

في البيع في السوق العاجل يشتري المتعامل أو يبيع ويقبض، فإذا كان السهم حلالاً فالعقد صحيح حلال، ولكن نأتي إلى البيع الآجل سواء أكان هذا في أسواق الأوراق المالية، أم البضائع، أم النقود، هذا البيع الآجل ماذا يعني؟

له صور مختلفة: منه ما يسمى بالبيع الباتّ؛ وهو بيع آجل وباتّ، أي نهائي، بمعنى أن المشتري والبائع يتفقان على شراء أسهم معينة محددة تسمح بها نظم البورصة، فالبورصة تجعل البيع لعدد معين ومضاعفاته، وتتم الصفقة والثمن كم هو؟ سواء زاد عن وقت الاتفاق، أم قلّ، أم بقي كما هو؟ فإذا كان أكثر أو أقل ننظر هنا: الصالح البائع أم المشتري؟

نضرب مثلاً: البائع اتفق على شراء أسهم معينة بسعر مائة، معنى هذا أن البائع ملتزم ببيع أسهم من هذا النوع في وقت التصفية بسعر مائة، وأن المشتري يلتزم بشراء هذه الأسهم بسعر مائة ؛ فإذا كان السعر السائد في وقتها مائة انتهى الأمر بلا كسب ولا خسارة إلا بقدر ما يخسره المتعاملون في البورصة، وهو ما يدفع للإدارة والسماسرة، إذن يسلم الأسهم ويأخذ الثمن، ولكن لا حاجة إلى هذه؛ لأنه لا بيع ولا شراء أصلا في الواقع، وإنما هو ما يسمى بالمضاربة.

والحقيقة أن في البورصة أسماء تلتبس مثل كلمتي مضاربة ومرابحة: المضاربة في الإسلام تعني شركة يكون فيها رأس المال من جانب والعمل من جانب، والربح يقسم بين الاثنين بالنسبة المتفق عليها، أما المضاربة في البورصة فتعني المقامرة، كيف هذا؟ المشتري عندما اشترى بمائة لأنه يضارب- يقامر- على الزيادة، والبائع عندما باع بمائة إنما باع لأنه يتوقع النقصان.

فمثلا: السهم الذي اتفق عليه بمائة في موعد التصفية أصبح يباع حالا في السوق العاجلة بمائة وعشرة، المشتري اشترى بمائة، فمعنى هذا أنه يأخذ من البائع بمائة ويبيع هو بمائة وعشرة، والمسألة لا تحتاج إلى تعب وتسليم وتسلم، وإنما الوسيط الذي يقوم بالعمليتين يسجل العملية الأولى بأن المشتري اشترى مثلا ألف سهم بسعر مائة، ثم الآن له هذا الألف بسعر مائة وعشرة، فالمكسب عشرة آلاف، يقيَّد لحسابه، وهذه تعني أنها تخصم من حساب البائع، ولذلك قلت بأنه لا كسب لأحد إلا على حساب الآخر، تمامًا كالمقامرين.

لنفرض أن هذا السهم جاء على غير ما توقع، المشتري توقع أن يزيد فإذا به ينخفض بخمسة وتسعين ويبيع بمائة، ولكن الوسطاء والقائمين على البورصة يسهِّلون المسألة، لا حاجة إلى تسليم وتسلم، ما جاء به الإسلام من مسألة القبض والتسليم والتسلم هذا أمر لا حاجة إليه عند هؤلاء، أنت الآن بعت واتفقت على أن تبيع بمائة، والسعر الآن أصبح خمسة وتسعين، يعني إذن اشتريت بخمسة وتسعين تبيع بمائة، وتكسب خمسة، فلك خمسة آلاف، فيكون هذا كسبًا لمن باع خصمًا من حساب المشتري، هذه حالة، فهل مثل هذا يمكن أن يعد بيعًا أو شراء؟

شيء آخر: المشتري قد يحتاط لنفسه، يخشى أن تنخفض الأسعار لدرجة كبيرة جدًا، فيشتري مع خيار شرطي، بأن يتم الصفقة أو يدفع تعويضا للبائع. وتوضيح هذا: أن المشتري يشتري ويجعل لنفسه الخيار: يتفق مع البائع بأنه له الخيار: إما أن يتم البيع، أو يدفع له تعويضا، ففي الحالة السابقة قد يشتري المشتري بمائة مع شرط التعويض بخمسة إذا رغب في عدم إتمام الصفقة، فعندما يأتي الوقت إما أن يشتري بمائة، أو يترك الصفقة ويدفع خمسة عن كل سهم، فلو فرضنا أن السعر في وقتها أصبح بمائة فإنه يشتري حتى لا يخسر، وإن كان بمائة وعشرة فهي فرصة للكسب، لأنه يشتري ويبيع بمائة وعشرة، وإن كان بخمسة وتسعين استوى عنده إتمام الصفقة وعدم إتمامها، فهو خاسر حتمًا، والخسارة واحدة: إذا اشترى بمائة وباع بخمسة وتسعين خسر خمسة، وإذا لم ينفذ العملية خسر خمسة، فالوسيط يقيد عليه عدد الأسهم وخسارتها، ولو أن قيمة الأسهم قلت عن هذا فأصبحت مثلا بثمانين فإنه يخسر عشرين في كل سهم إذا أتم الصفقة، ولهذا فإنه لا يتمها، ويكتفي بدفع التعويض للبائع، هذا بالنسبة للمشتري.

أما البائع فإنه على عكس هذا، يتوقع انخفاض السعر فيبيع مع شرط الخيار له أيضا في أن يتم الصفقة أو يدفع تعويضا، فإذا اتفق بمائة، ثم أصبح سعر السهم عند التصفية تسعين، يشتري بتسعين ويبيع بمائة ويربح عشرة، وإذا أصبح بمائة يبيع ويشتري ولا يدفع تعويضا، ولا يربح ولا يخسر إلا الخسارة التي أشرت إليها من قبل- وهي ما يأخذه السماسرة وإدارة البورصة.

وإذا وصل سعر السهم إلى مائة وخمسة، وكان قد اتفق أن يبيع بمائة، فلو اشترى من السوق العاجل بمائة وخمسة وباعه بمائة خسر خمسة، والتعويض أصلاً خمسة، فهو سيدفع التعويض لا محالة، وإذا ارتفع السعر أكثر من هذا أصبح مائة وعشرة، أو مائة وعشرين، فهنا لا ينفذ العملية وإنما يدفع التعويض وهو خمسة.

فهذا كما نرى شرط للمشتري أو للبائع، ولا ثمن ولا سلعة، ولا تسليم ولا تسلم، وإنما هي مسألة أن هذا يتوقع أن يكون السوق في اتجاه الارتفاع، والآخر يضارع- أي يقامر- في اتجاه الانخفاض، فإذا جاء- كما توقع أحدهما- ربح على حساب الآخر الذي جاء على خلاف توقعه.

خيار الشرط في البيع في الفقه الإسلامي:

قد يأتي واحد يقول هنا: البيع في الإسلام فيه خيار الشرط، وأجازه الأئمة الأعلام؟

نعم يوجد خيار الشرط، ولكن ما معنى خيار الشرط في البيع في الفقه الإسلامي؟ عندنا خيار المجلس وخيار الرؤية وخيار التعيين وخيار العيب وهكذا، خيارات مختلفة: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا» متفق عليه.

إن خيار الشرط يعني أن البائع عندما يبيع السلعة يسلم، ويتسلم المشتري، قد يشترط المشتري الخيار مدة يوم أو يومين أو ثلاثة مثلاً، بحيث إنه في هذه المدة يشاور، قد يكون اشتراه لغيره فيسأل غيره، قد يكون على دراية بالسوق، فيقول هنا: لي خيار يوم أو يومين أو ثلاثة حتى أبحث: هل السعر مناسب أم لا؟

والبائع كذلك قد يجعل خيارًا لنفسه، وخيار الشرط يعني أن المدة إذا انقضت ولم ينفخ البيع فإن البيع تام كما هو، لا زيادة ولا نقصان ولا تعويض، إذا جاء المشتري في مدة الخيار وفسخ البيع أخذ البائع سلعته وأخذ المشتري الثمن، إذا كان جاء البائع وكان له حق الخيار- خيار الشرط- وأراد أن يسترد سلعته أخذها ورد الثمن.

هذا معنى خيار الشرط، أما أن يكون الخيار بمعنى الا سلعة ولا ثمن، وأن هنا تخمينا وظنا أن السعر قد يكون كذا، فهذا أشبه في الحقيقة بموائد القمار؛ لأن الهدف الأساسي هنا هو المضاربة كما يقولون، ولكن الواقع أنها المقامرة: المترجمون ترجموا الكلمة إلى العربية بكلمة مضاربة، لأن المترجمون أيضا لا يعرفون معنى المضاربة الإسلامية، ولذلك وجدنا أن بعض المسلمين الذين فهموا معنى مضاربة إسلامية عندما جاءوا للترجمة قالوا نسمي هذه متاجرة، وأقول: إنها ليست متاجرة، إلا إذا اعتبرنا القمار نوعًا من التجارة، فإنه لا تسلم ولا تسليم ولا بيع ولا شراء، وإنما كل واحد يضارب الآخر على الصعود أو الهبوط، أي يقامره.

صورة أخرى من صور التعامل في البورصة:

وأنتقل بعد هذا لبيان صورة أخرى من صور التعامل في البورصة وهي: أن يحدَّد سعرًا أدنى وأعلى للبيع أو الشراء، على أن يكون للمشتري أو للبائع الخيار، في ماذا؟ السعر مثلاً قد اتفق على أنه من سبعين إلى ثمانين، والخيار للمشتري، والخيار للمشتري يعني أنه إما أن يبيع بسبعين، وإما أن يشتري بثمانين، ومعنى هذا أن المشتري- عندما يأتي وقت التصفية- إما أن يظل مشتريًا، وإما أن يتحول هو إلى بائع، والبائع يتحول إلى مشتري.

فإذا كان السعر سبعين باعه بسبعين، وإذا كان ثمانين اشتري بثمانين، وإذا كان السعر بين

المرابحة في البورصة (تابع) — السبعين والثمانين فإن البائع يربح، لأن المشتري إذا اختار أن يكون بائعًا فسيبيع له بسبعين، يعني لو فرضنا مثلاً أنه كان بخمسة وسبعين فالمشتري الذي له الخيار: إذا قال أنا أبيع فإنه يبيع سبعين، ويخسر خمسة، أو يشتري بثمانين، فالبائع يشتري بخمسة وسبعين ويبيع بثمانين، أي أن البائع في حالة الخيار للمشتري يربح إذا كان السعر بين السعرين: السبعين والثمانين، أما إن زاد عن الثمانين أو قل عن السبعين فإن البائع لا بد أن يخسر والمشتري الذي قامره يكسب بقدر خسارة خصمه، بأن يتحول إلى بائع، ويظل مشتريًا، والعكس بالنسبة للبائع لو أن الخيار كان له.

المرابحة في البورصة:

ونترك المضاربة ونأتي إلى ما يسمى في البورصة بالمرابحة:

قد يأتي الوقت المحدد للتصفية، ولا يستطيع المشتري أن يتم الصفقة؛ لأن الأسعار تطورت طورًا كبيرة على خلاف ما توقع، فقد يكون اشترى بمائة وثلاثين فإذا به يصل إلى مائة، فعليه عندئذ أن يشتري الأسهم بمائة وثلاثين، ويبيع بمائة، فيخسر ثلاثين في كل سهم، ويمكن أن يكون اشترى فإذا وجد المشتري أنه لا يستطيع أن يتم الصفقة في الموعد، فهنا يمكن أن يؤجل هذه الصفقة إلى التصفية التالية عن طريق التأجيل بالمرابحة.

وقد يختلط الأمر عند سماع كلمة المرابحة، ونحن نعرف أن المصارف الإسلامية تبيع بالمرابحة، ولكن الأمر مختلف تمامًا بين المضاربة في البورصة والمضاربة في الإسلام.

فالمرابحة في البورصة لا تعني المرابحة في المصارف الإسلامية؛ لأن المرابحة في المصارف الإسلامية تعني أن المصرف له الحق في بيع السلعة متى اشتراها وامتلكها وحازها، وضمن هلاكها قبل التسليم، ثم يقع على المصرف تبعة الرد بالعيب الخفي بعد البيع.

أما التأجيل بالمرابحة هنا فمعناه أنه يبحث عن ممول يخرجه من ورطته هذه، مقابل زيادة فائدة، فسمي هذا: زيادة بالمرابحة أو تاجيلا بالمرابحة، أي قرض ربوي مقابل التأجيل.

والبائع قد يخسر ولا يستطيع تنفيذ الصفقة، فيؤجل بالوضيعة، الوضيعة أيضا نعرفها في الإسلام، عندنا في الفقه الإسلامي بيع المساومة وبيوع الأمانة، فبيع المساومة هو البيع الشائع الذي يتم به الشراء دون إشارة إلى ربح البائع أو عدم ربحه أو خسارته.

أما بيوع الأمانة فإنها تعتمد على أمانة البيع، وتقسم إلى مرابحة تولية وحطيطة أو وضيعة: فالمرابحة تكون عندما يتفق البائع مع المشتري على البيع مع تحديد ربح معين، كأن يقول: هذه كلفتني مائة وأبيعها لك بمائة وعشرة. هذا بيع المرابحة.

وقد يكون عند التاجر سلعة يريد أن يتخلص منها فيقول: أنا أبيعها بسعر التكلفة، فهذا بيع التولية: يعني لا ربح ولا خسارة.

وقد يخشى التاجر على البضاعة أن تتلف- أو لسبب ما- فيقول: أنا أبيعها وأخسر فيه عشرة في المائة مثلاً، فهنا يسمى بيع الحطيطة أو الوضيعة.

أما في البورصة فإن الوضيعة لا تعني هذا، إنما تعني أن البائع إذا ارتفعت عليه الأسعار، وأصبحت خسارته كبيرة، فاراد تاجيل الصفقة فعليه أن يجد متعاملا يملك النوع المطلوب من الأوراق المالية، فيشتريها منه، ثم يبيعها له مرة أخرى على أساس موعد التصفية التالي حسب التقاصّ، أي تتم إعارة هذه الأوراق مقابل فائدة ربوية تسمى وضيعة.

فالمرابحة في البورصة قرض ربوي للمشتري والوضيعة قرض ربوي للبائع.

وأحيانًا تكون العملية مركبة بحيث يشترط أكثر من شرط، أو يدخل ليشتري هنا ويبيع هناك، حتى إذا كان الاتجاه في الصعود يقلل من الخسارة، وكذلك إذا كان الاتجاه في الهبوط.

البيع الآجل في الواقع لا يعني بيعًا ولا شراء، ولا تسليمًا ولا تسلمًا، ففي بورصة نيويورك- على سبيل المثال- عندما قاموا بإحصائية وجدوا أن القبض الفعلي لا يكاد يصل إلى اثنين في المائة، معنى هذا أن الداخلين إلى سوق البيع الآجل إنما هم مريدون للمضاربة، أي المقامرة، فلا يريدون الشراء وليسوا في حاجة إلى اسهم، وإنما هم يدخلون السوق من أجل المقامرة بمعنى إذا رأى أن السعر سيرتفع من وجهة نظره اشترى، وإذا رأى أنه سينخفض باع بسعر معين.

وللحديث بقية في العدد القادم إن شاء الله.

باب السنة

أعظم الكرامة لزوم الاستقامة

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

عن سُفْيَانَ بنِ عبدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ قال: قلت يا رَسُولَ اللهِ قُلْ لي في الإسْلامِ قَوْلًا لا أَسْأَلُ عنه أَحَدًا بَعْدَكَ، وَفي حَدِيثِ أبي أُسَامَةَ غَيْرَكَ قال: « قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ فَاسْتَقِمْ»

أولا: تخريج الحديث

(أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، بَاب جَامِعِ أَوْصَافِ الْإِسْلَامِ (١ / ٦٥) حديث (٣٨)، ط/دار إحياء التراث العربي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي)، وانفرد به عن البخاري، واللفظ له.

وأخرجه الترمذي في «كتاب الزهد» «باب ما جاء في حفظ اللسان» حديث (٢٤١٠)، (٤ / ٦٠٧)، ط/ دار إحياء التراث العربي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، وزاد فيه» قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليَّ؟ قال: هذا، وأخذ بلسانه».

وأخرجه ابن ماجه في «كتاب الفتن» «باب كف اللسان في الفتنة» حديث (٣٩٧٢)، (٢ / ١٣١٤)، ط/دار الفكر، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي)، وزاد فيه ما زاده الترمذي.

وأخرجه ابن حبان « كتاب الحظر والإباحة »، «باب ما يكره من الكلام وما لا يكره»، (٥/١٣)، ط٢/مؤسسة الرسالة تحقيق شعيب الأرناءوط.

فائدتان على تخريج الحديث:

لم يرو مسلم لسفيان بن عبد الله راوي هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم غير هذا الحديث.

ولم يرو له البخاري ولا روى له في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم شيئًا. [انظر: الديباج على مسلم لأبي الفضل السيوطي (١ / ٥٦)، ط/ دار ابن

عفان، تحقيق: أبو إسحاق الحويني الأثري].

ثانيًا: رجال الحديث

سُفْيَان بن عبد اللهِ الثَّقَفِيِّ: هو ابن ربيعة بن الحارث الثقفي الطائفي صحابي، وكان عامل عمر على الطائف[تقريب التهذيب لابن حجر (١ / ٢٤٣٦)، ط١/ دار الرشيد، تحقيق: محمد عوامة].

عروة: هو ابنِ الزبيرِ بن العوام، مدني تابعي ثقة، كان رجلاً صالحا لم يدخل في شيء من الفتن ووقعت في ركبته الأكلة فقطعها ولم يترك جزءه تلك الليلة [انظر: معرفة الثقات للعجلي (ج٢ ص١٣٣)، ط١/ مكتبة الدار].

هشام بن عروة : هو ابن عروة بن الزبير بن العوام الأسدي ثقة فقيه، ربما دلس، من الخامسة، مات سنة خمس أو ست وأربعين وله سبع وثمانون سنة [تقريب التهذيب ج ١ ص ٧٢٩٧]، ووثقه العجلي [انظر:معرفة الثقات (ج٢ ص٣٣٢)، ط١/ مكتبة الدار].

فائدة: قلت: قول الحافظ (ربما دلس) فسره لنا - الحافظ - في طبقات المدلسين بعدما وضعه في الطبقة الأولى (وهم مَن لم يوصف بالتدليس إلا نادرًا)، ثم قال: ذكره بذلك أبو الحسن القطان، وأنكره الذهبي وابن القطان، فإن الحكاية المشهورة عنه أنه قدم العراق ثلاث مرات، ففي الأولى حدَّث عن أبيه فصرح بسماعه، وفي الثانية حدث بالكثير فلم يصرح بالقصة، وهي تقتضي أنه حدث عنه بما لم يسمعه منه، وهذا هو التدليس (قلت: أي أنه في المرة الثانية كان يحدث عن أبيه ما لم يسمعه منه مباشرة؛ لذا لم يصرح بالسماع) [انظر: تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس المعروف بطبقات المدلسين لابن حجر، ص٢٦، ط١/مكتبة المنار].

قلت: ومَن وضعه الحافظ في الطبقة الأولى والثانية هم من احتمل الأئمة تدليسهم، وأخرجوا لهم في الصحيح كيحيى بن سعيد الأنصاري من الأولى، والثوري من الثانية، وعليه فلا إشكال في صحة الحديث للحيثيات التالية:

١- تخريج الإمام مسلم للحديث يُعد حكمًا بصحته.

٢- هشام بن عروة من رجال الصحيحين، بل خرَّج له الجماعة.

٣- أن تدليسه من الطبقة الأولى كما سبق بيانه فهو حديث صحيح والحمد لله.[انظر: طبقات المدلسين ص١٣].

ثالثا: شرح ألفاظ الحديث

قوله: « قل لي في الإسلام قولاً لا أسال عنه أحداً غيرك »: أي علمني قولاً جامعاً لمعاني الإسلام واضحاً في نفسه؛ بحيث لا يحتاج إلى تفسير غيرك، أعمل عليه وأتقي به، فأجابه صلى الله عليه وسلم بقوله: « قل آمنت بالله ثم استقم ».]شرح الأربعين النووية (١ / ٢٠](، ولفظ الترمذي وابن ماجه (حدثني بأمر أعتصم به): أي أستمسك به [تحفة الأحوذي للمباركفوري (٧ / ٧٧)(ط /دار الكتب العلمية]، والجمع بينهما: أي قل لي قولاً جامعًا أستمسك به، ولا أحتاج بعده إلى سؤال غيرك.

قوله: «قل آمنت بالله ثم استقم» قال النووي: قال القاضي عياض رحمه الله: هذا من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم وهو مطابق لقوله تعالى: « إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ » [الأحقاف: ١٣] أي وحدوا الله وآمنوا به، ثم استقاموا فلم يحيدوا عن التوحيد والتزموا طاعته سبحانه وتعالى إلى أن توفوا على ذلك. وعلى ما ذكرناه أكثر المفسرين من الصحابة فمن بعدهم، وهو معنى الحديث إن شاء الله تعالى، هذا آخر كلام القاضي رحمه الله. [شرح النووي على صحيح مسلم (٢ / ٩، ط٢ /دار إحياء التراث العربي].

ومعنى الاستقامة:

لغة: الاعتدال، وهي مصدر استقام: أي اعتدل واستوى [انظر لسان العرب (٤٩٩/١٢)، ط١/ دار صادر].

وفي الشرع: هي سلوك الطريق المستقيم، وهو الدين القويم من غير تعويج عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك » [انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب ص (١٩٣)].

وذكر البغوي رواية عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «استقاموا لله ولم يروغوا روغان الثعالب»، وروي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: «لم يشركوا بالله شيئا ». [شرح السنة للبغوي (١/ ٣١)ط٢/ المكتب الإسلامي تحقيق: شعيب الأرناؤوط)].

قوله: (ما أخوف ما تخاف علي) (وهى زيادة عند الترمذي، وابن ماجه): ما الأولى استفهامية مبتدأ خبره أخوف، وهو اسم تفضيل، وما الثانية موصولة: أي ما أخوف الأشياء التي تخاف منها عليّ يا رسول الله.

(فأخذ بلسان نفسه، ثم قال هذا): أي أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بلسان نفسه، ثم قال هذا، والمعنى: هذا أكثر خوفي عليك منه (وهي أيضا زيادة عند الترمذي وابن ماجه) [تحفة الأحوذي للمباركفوري (٧ / ٧٧(ط/ دار الكتب العلمية].

رابعا: من فوائد الحديث

الحديث دليل على حرص الصحابة رضوان الله عليهم على العلم، وسؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن أهم الأعمال وأحكمها، وعلى تعلم الدين، وهذا مفهوم واضح من سؤال الصحابي للنبي صلى الله عليه وسلم، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: «كان الناس يسألون الرسول صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني» [جزء من حديث متفق عليه في البخاري برقم (٣٤١١)، ومسلم برقم (١٨٤٧)].

الحديث من جوامع الكلم التي أوتيها النبي صلى الله عليه وسلم، ففي هذين الأمرين جمع النبي الدين كله، ولذا بوَّب الإمام مسلم عليه بـ «باب جامع أوصاف الإسلام »، فالحديث شمل عمل القلب وهو الإيمان، وعمل الجوارح وهي الاستقامة، فهو شامل للظاهر والباطن. شرح النووي على صحيح مسلم (٢ / ٩، ط٢ /دار إحياء التراث العربي].

الحديث دليل على أن جماع الخير في الاستقامة بعد الإيمان؛ ولأن شأنها عظيم أرشد النبي صلى الله عليه وسلم لها حينما سأله عن شيء جامع، وجواب النبي صلى الله عليه وسلم هو الموافق لقوله تعالى:« إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ».]الأحقاف: ١٣]. [انظر: الديباج على مسلم لأبي الفضل السيوطي (١ / ٥٦)، ط/ دار ابن عفان، تحقيق: أبو إسحاق الحويني الأثري].

زيادة الترمذي وابن ماجه مبينة على أن أعظم ما يراعى استقامته بعد القلب من الجوارح اللسان، فإنه ترجمان القلب، ونُسب إلى أحمد: لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ونُسب إلى الشافعي: احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغنك إنه ثعبان. [انظر: شرح سنن ابن ماجه للسيوطى ج ١ ص ٢٨٦].

خامسا: في رحاب الحديث

إن غاية ما يتطلع إليه الإنسان المسلم: أن تتضح له معالم الطريق إلى ربِّه، فتراه يبتهل إليه في صلاته كل يوم وليلة أن يهديه الصراط المستقيم؛ كي يتخذه منهاجًا يسير عليه، وطريقًا يسلكه إلى ربه، حتى يظفر بالسعادة في الدنيا والآخرة.

وهذا الحديث على قلة ألفاظه، يضع منهجًا متكاملاً للمؤمنين، وتتضح معالم هذا المنهج ببيان قاعدته التي يرتكز عليها، وهي الإيمان بالله: (قل آمنت بالله)، فهذا هو العنصر الذي يغير من سلوك الشخص وأهدافه وتطلعاته، وبه يحيا القلب ويولد ولادة جديدة تهيئه لتقبل أحكام الله وتشريعاته، ويقذف الله في روحه من أنوار هدايته، فيعيش آمنا مطمئنًا، ناعمًا بالراحة والسعادة، قال الله تعالى مبينا حال المؤمن: «أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا » (الأنعام: ١٢٢)، فبعد أن كان خاوي

الروح، ميّت القلب، دنيوي النظرة ؛ إذ بالنور الإيماني يملأ روحه، فيشرق منها القلب، وتسمو بها النفس، ويعرف بها المرء حقيقة الإيمان ومذاقه.

ولما كان هذا شأنها أرشد إليها النبي صلى الله عليه وسلم بعد الإيمان، فمن الناس من يأتي بالإيمان اعتقادا وقولاً وعملاً لكنه يعوجُ في طريقه ويقصّر في عمله، والاستقامة هي الثبات على طريق الحق والاستمساك به، فهي طريق النجاة، ولذا أمر الله عز وجل بها.

الاستقامة تكون بالقلب واللسان والجوارح

لذا فمن زعم أنه استقام على شرع الله تعالى وظاهره يخالف ذلك وتراه ربما يشير إلى صدره ويقول: (التقوى هاهنا) فزعمه باطل، ودعواه كاذبة، فاستقامة القلب تنقاد إليها الجوارح، فهي امتحانه ودليله، وكذا من استقام ظاهره ولم يستقم قلبه فاستقامته مخرومة، فليست هي الاستقامة التي يريدها الله تعالى، فمن عمّر قلبه بفتن الشهوات وساء عمله حمل قلبا مسودًا أو قلبًا قليل التعلق بربه ومهابته وخشيته وإجلاله وتعظيمه والتقرب إليه بالعبادات القلبية، فأنى لقلبه استقامة؟!

وغالبا ما يُظهر اللسان ما في القلب فتجده معبِّرا عما فيه، فمن ساء قوله فكانٍ كذابًا أو مغتابًا أو نمامًا أو فاحشا بذيئا ونحو ذلك من آفات اللسان فأي لسان استقام معه؟! لذا فإن الاستقامة تكون بالقلب واللسان والجوارح.

يقول ابن القيم رحمه الله: «والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيّات، فالاستقامة فيها وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله. قال بعضهم: كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطالبك بالاستقامة، فالاستقامة للحال بمنزلة الروح من البدن، فكما أن البدن إذا خلا عن الروح فهو ميت، فكذلك إذا خلا عن الاستقامة فهو فاسد... وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة»

[انظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/١٠٥)، ط ٢/ دار الكتاب العربي، تحقيق: محمد حامد الفقي].

و يقول ابن رجب – رحمه الله –: « أصل الاستقامة استقامة القلب على التوحيد... فمتى استقام القلب على معرفة الله وعلى خشيته وإجلاله ومهابته، ومحبته وإرادته، ورجائه ودعائه والتوكل عليه والإعراض عما سواه، استقامت الجوارح كلها على طاعته، فإن القلب هو ملك الأعضاء، وهي جنوده فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه، وأعظم ما يراعى استقامته بعد القلب من الجوارح اللسان، فإنه ترجمان القلب والمعبِّر عنه».[انظر: جامع العلوم والحكم (٢٠٥)، ط٧/مؤسسة الرسالة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط / إبراهيم باجس].

ختامًا: ونحن في أعقاب رمضان

إن كانت حقيقة الاستقامة أن يحافظ العبد على الفطرة التي فطره الله عليها، فلا يحجب نورها بالمعاصي والشهوات، مستمسكا بحبل الله، كما قال ابن رجب رحمه الله: « والاستقامة في سلوك الصراط المستقيم تشمل فعل الطاعات، وترك المنهيات «[انظر: جامع العلوم والحكم (ص: ٢٠٦)]

فلا يتصور- أخي في الله – أن تفرط في إكرام الله لك، ولا أن تتخلى عن جهدك وعلو همتك التي عوّدت نفسك الطيبة عليها في رمضان، نسأل الله أن يهدينا وإياك إلى صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

درر البحار من ضعيف الأحاديث القصار

الحلقة الثالثة عشرة

إعداد/ علي حشيش

١٤٣- «الزِّنَا يُورث الفَقْرَ».

الحديث لا يصح: أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (٢/٢٣١) عن عبد الله بن عمر مرفوعًا، وفيه ليث بن أبي سليم تركه يحيى القطان وابن مهدي واحمد بن حنبل ويحيى بن معين، وقال احمد بن حنبل عندما سُئل عن ليث بن ابي سليم: إنه ضعيف الحديث جدًا، كثير الخطا. اهـ.

١٤٤- «إذا صليتم الصبح فافزعوا إلى الدعاء، وباكروا في طلب الحوائج، اللهم بارك لأمتي في بكورها».

الحديث لا يصح: أخرجه الخطيب في «التاريخ» (١٢/١٥٥) من حديث علي بن ابي طالب مرفوعًا، وفيه القاسم بن جعفر البلوي، قال الخطيب في «التاريخ» (١٢/٤٤٣): «حدّث عن ابيه عن جده عن ابائه نسخة اكثرها مناكير، وفيه العباس بن احمد روى الخطيب عن ابي احمد السراج: لم يكن صدوقًا ولا ثقة ولا مامونًا».

١٤٥- «كنتُ كنزًا لا أُعرف، فاحبَبْتُ أنْ أُعرَف فَخَلَقتُ خَلقًا فعرفتهم بي فعرفوني».

الحديث لا أصل له، ذكره الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٨/٣٧٦) وقال: ليس هذا من كلام الله عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يُعرف له إسناد صحيح ولا ضعيف. اهـ.

١٤٦- «حُسنُ الوجه مالٌ، وحسنُ الشعرِ مالٌ، وحسنُ اللسانِ مالٌ، والمالُ مالٌ».

الحديث لا يصح، أخرجه ابو نعيم في «اخبار اصبهان» (١/١١١) عن انس مرفوعًا، وفيه يحيى بن عنبسة، قال ابن حبان في «المجروحين» (٣/١٢٤): «شيخ دجال يضع الحديث، لا تحل الرواية عنه بحال ولا كتابة حديثه إلا للاعتبار». اهـ.

١٤٧- «مَنْ أكَلَ مَعَ مَغفُورٍ لَهُ غُفِرَ لَهُ».

الحديث لا أصل له، ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى» (١٨/٣٨١) وقال: هذا ليس له إسناد عند أهل العلم، ولا هو في شيء من كتب المسلمين.

١٤٨- «السلامُ قبل الكلامِ، ولا تَدعُوا أحدًا إلى الطَّعام حتى يُسَلِّم».

الحديث لا يصح أخرجه الترمذي في «السنن» (ح٢٦٩٩) عن جابر بن عَبد الله مرفوعًا، وفيه عنبسة بن عبد الرحمن، قال ابن حبان في «المجروحين» (٢/١٧٨): «يروي عن محمد بن زاذان، صاحب

أشياء موضوعة، وما لا أصل له.. مقلوب لا يحل الاحتجاج به.. قال البخاري في «الضعفاء الصغير» (٣٢٠): «منكر الحديث لا يُكتب حديثه». اهـ. فالحديث موضوع.

١٤٩- «إذا جلس القاضي في مكانه، هَبط عليه ملكان يُسددانه ويوفِّقانه ويرشدانه، ما لم يَجُر، فإذا جار عَرَجا وتركاه».

الحديث لا يصح: أخرجه البيهقي في «السنن» (٨٨/١٠)، والخطيب في «التاريخ» (١٧٦/٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا، وآفته العلاء بن عمرو الحنفي، قال الإمام الحافظ ابن حبان في «المجروحين» (١٨٥/٢): «العلاء بن عمرو الحنفي شيخ يروي العجائب، لا يجوز الاحتجاج به». اهـ. وقال الحافظ الذهبي في «الميزان» (٥٧٣٧/١٠٣/٣): «متروك».

١٥٠- «اللص محارب لله ورسوله، فاقتلوه، فما أصابكم من إثمه فعليَّ».

الحديث لا يصح: أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (٢٠٨/٢) عن عائشة مرفوعًا، وفيه فُرات بن زهر، قال ابن حبان: لا تحل الرواية عنه، ولا الاحتجاج به بحالٍ.

١٥١- «ما مُطر قومٌ إلا برحمةٍ، ولا قُحطوا إلا بسخطةٍ».

الحديث لا يصح: أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (ح٧٤٣) عن أبي أمامة مرفوعًا، وآفته جميع بن ثوب، قال البخاري في «الضعفاء الصغير» (٥٣): «منكر الحديث»، وقال النسائي في «الضعفاء والمتروكين» (١٠٥): «جميع بن ثوب الشامي: متروك الحديث».

١٥٢- «الأمانةُ غِنى».

الحديث لا يصح: أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١/٣) عن يزيد بن أبان الرقاشي عن أنس بن مالك مرفوعًا، وآفته يزيد، قال ابن حبان في «المجروحين» (٩٨/٣) يزيد الرقاشي بن أبان من أهل البصرة، كُنيته أبو عمرو، يروي عن أنس بن مالك، فلما كثر في روايته ما ليس من حديث أنس وغيره من الثقات بطل الاحتجاج به، فلا تحل الرواية عنه إلا على سبيل التعجب، وكان قاصًا يقصّ بالبصرة». اهـ.

١٥٣- «مهورُ الحورِ العينِ قَبَضَاتُ التَّمر وَفِلَقُ الخُبْزِ».

الحديث لا يصح: أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (٨٨/١) عن أبي هريرة مرفوعًا، وفيه عمرو بن صبح يضع الحديث.

١٥٤- «سَبُّ أصحابي ذنبٌ لا يُغفرُ».

الحديث لا أصل له، أورده شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى» (٣٨١/١٨) وقال: «هذا كذب على النبي صلى الله عليه وسلم، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾».

منبر الحرمين

معالم الهدى في أجواء الفتن

إعداد/ الشيخ الدكتور
صالح بن عبد الله بن حميد
إمام المسجد الحرام بمكة المكرمة

الحمد لله، الحمد لله المُتفرِّد بكمال القدرة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبدُه ورسوله.

فاتقوا الله -رحمكم الله-، واسمعوا وأطيعوا؛ فطُوبى لمن سمع فوعَى، ثم طُوبَى لمن تذكَّر لحدَه يوم يُوضَع فيه وحده، يوم يُنفخ في الصور، ووُضِع الكتاب، وتقطّعت الأسباب، فشخَصَت الأبصار؛ فإما إلى جنة وإما إلى النار، ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩].

من فضل الله على الأمة توحيد مصدر التلقي:

أيها المسلمون: إن من منّة الله على أهل الإسلام: أن وحَّد لهم مصدرَ التلقِّي، فلا تذبذُب ولا اضطراب في تلقِّي حقائق العقائد والأحكام وسُبل الهدى، المصدر: هو الوحي المعصوم الثابت من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وما صحَّ من سنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، يُؤمنُ أهل الإسلام بكل ما ثبتَ به اللفظ وصحَّ به الخبر فيما هو شاهد وفيما هو غائب، ما عقِلناه وما جهِلناه، ما أحطنا بحقائقه وما لم نُحِط، ومن طلبَ الحق في أمور الدين من الأحكام والعقائد والهُدى من غير هذا المصدر فقد ضلّ سواء السبيل.

ومن ظنَّ أنه يعتمد على فهمه في هذه النصوص والأخبار دون النظر في فهم السلف الصالحين وأهل العلم الأثباتَ الراسخين، وأن فهمَه مُقدَّمٌ على فهومهم فقد سلكَ المسالك المعوَجَّة.

حجب حقائق الغيب عن العباد:

يُقال ذلك -أيها المسلمون- ويُقرَّر حين يكون الحديثُ عن الفتن وتبيُّنها وأخبار الملاحم وأنباء الحوادث الكُبرى، أخبارٌ وأنباءٌ تتعلَّق النفوس بها وتبحث عن تأويلها وأوقات حُدوثها ومواعيد وقوعها، ومما يستدعِي الإيضاحَ والبيان: أن من قواعد البشر التعلق بالغيبيات والتشوُّف لاستشراف المستقبل والتتبُّع لمعرفة أنباء مخبوء الغيب؛ من تأويل النوازل، وتفسير الأحداث، وأعمار الدول، وبناء الأمم؛ بل تراهم يتعلقون بالرُّؤى والمنامات وأنباء الغيب، حتى إنهم يلجؤون إلى الكهان والمنجِّمين والمُشعوذين والمعبرين وأضرابهم بُغية استكشاف ما وراء

الحُجُب؛ ذلك أن العلة بما سيكون والتطلُّع لحوادث المستقبل أمرٌ تنجذب إليه النفوس؛ فهو حلوُ المذاق، عذبُ الطعم، وفي مقدمة ذلك: أحاديث الفتن والملاحم وأخبار آخر الزمان، تتشوّق لها نفوسهم، وتتشوَّف لها رغباتُهم، وتمتدُّ إلى سماع أخبارها أعناقُهم.
غير أن الله سبحانه طوَى عن الخلق حقائق الغيب، وضربَ دونه الأسداد، وحجَبَه عن أكثر العباد، وفتحَ لهم بابًا يكون لهم فيه نفعُهم في أمور دينهم ودنياهم، لا يدخل عليهم ضرر، ولا يشغلهم عن مهماتهم ووظائفهم.

من معالم الهدى في أجواء الفتن:

أيها المسلمون: وهذا بيانٌ لمعالم هُدى يتبيَّنها المسلم وهو ينظر في أحاديث الفتن ويستمِعُ إليها ويقرأ عنها؛ فمن معالم الهُدى: أن نبينا محمدًا -صلى الله عليه وآله وسلم- يُخبرنا عن حلول الفتن واضطراب الأحوال وأنباء الهَرْج والمَرج وحوادث آخر الزمان وأشراط الساعة، فليس من «أل» التخويف والإنذار وحده، ولا لمجرد الإخبار باقتراب الزمان وتغيُّر الناس وحُلول الهَرْج والمَرْج؛ بل لأجل الاشتغال بالعمل وبذل مزيدٍ من الصالحات.
ألم تروا إلى نبيكم محمد -صلى الله عليه وسلم- حين سُئل عن الساعة، فقال للسائل: «ماذا أعددتَ لها؟!»، وفي لفظ: «ويلكَ: ما أعددتَ لها؟!».
فتأمَّلوا هذا التوجيهَ النبوي من المعلِّم الهادي -صلى الله عليه وسلم-، فقد صرف السائلَ إلى ما يعنيه ويُفيده.
يقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: «والحكمةُ من هذه الأحاديث والأنباء إيقاظ الغافلين، والحثُّ على التوبة، والاستعداد؛ فهذه الأخبار مواعظ تزجُر القلوب لتُقبل على علاّم الغيوب -جل وعلا-».
فالعبدُ الحازمُ المؤمنُ من إذا سمع ما صحَّ من هذه الأخبار قاده ذلك إلى العمل والحَزْم والاستعداد.
والخُسران والدَّمار لمن أعرض واشتغل بالتأويلات والتخييلات الصارفة، فهي أخبارٌ وأنباءُ لزيادة الإيمان وإقامة الحُجَّة ومزيد العمل والعبادة.
وتأمَّلوا هذا التوجيهَ النبوي في قوله -عليه الصلاة والسلام- وهو يذكُر الفتن: «فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبرُ فيهن مثلُ قبضٍ على الجمر، للعامل فيهن مثلُ أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم». قالوا: يا رسول الله أجر خمسين منهم؟! قال: «أجر خمسين منكم». أخرجه أبو داود، وابن ماجه، والترمذي، والطبراني في الكبير والأوسط من حديث أبي ثعلبَة الخُشَنيِّ -رضي الله عنه-.
وفي حديث معقِل بن يسار -رضي الله عنه- في صحيح مسلم عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «العبادة في الهَرْج كهجرةٍ إليَّ».
قال أهل العلم: «أي: العبادة في وقت اختلاف الناس واشتغالهم»، قالوا: «وعظُم الفضل لأن الناس يغفلونَ عنها ويشتغِلون بها، ولا يتفرَّغ إلا من رحِم الله وعصَم».
وتأمَّل ما تفعلهُ وسائلُ الإعلام في صرفِ الناس وانشغالهم بمُتابعتها ليلاً ونهارًا، يشغَلُ بها المبتَلى نفسَه وفكرَه وأصحابه في تحليلات وتعليلات وتخييلات وهو ليس فيها من قبيلٍ ولا دبير؛ هل هذا خير أم انصراف المرء إلى الإحسان في عمله ومسؤولياته المؤتَمن عليها والمسؤولِ عنها والمحاسَب عليها.
شغَلَ نفسَه بقراءة الصحف وسماع المذياع ومُشاهَدة القنوات ومُتابعة المواقع، ومن انشغَلَ بما لا يعنيه انصرف عما يعنيه.
ولعلَّ المتأمِّل يُدركُ لماذا شبَّه النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- العبادَة بالهجرة؟!
قال أهل العلم: «لأن الهجرة فرارٌ بالدين من المكان المَخوف المُضطرب إلى المكان الآمِن الذي يُقيم فيه المسلمُ دينَه».
والعبادةُ في أزمان الفتن فرارٌ من هذه الموجات، فرارٌ إيجابي وليس انهزامًا وسلبية؛ بل هو البناءُ والعمل، اشتغال بالعمل الصالح والعبادة والإصلاح ونُصرة الدين وجمع الكلمة والتحذير من الفُرقة، في أبوابٍ من عمل الخير وأنواع من العبادات الواسعة مفتوحَة؛ من صلواتٍ، وصَدقاتٍ، وصيامٍ، وحجٍّ، وعمرةٍ، وزيارةٍ، وإحسانٍ في المعاملات، وصدقٍ في العلاقات، وصفاءٍ في القلوب، وحبٍّ في الخير، والنُّصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من كل ما يُحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، من أعمالٍ مالية وبدنية وقولية وقلبية، وما فتحَ الله من أنواع الأعمال والطاعات، ولكل عملٍ بابٌ من أبواب الجنة.
فشمَّر الصالحون المُوفَّقون عن ساعد الجدِّ، وتلمَّسوا أبوابَ الخير والنجاة والثبات، واتقَوا الفتن، واجتنبوا أبوابَ الشر، «وإذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها».
أيها المسلمون: ومن معالم الهُدى في أوقات الفتن وسماع أخبار الملاحم: التأني في الفهم والتأويل، والتأني في تنزيل الأخبار على الوقائع والأحداث، يقول عبد الله: «إنها ستكون هنَاتٌ وأمورٌ مُشتبهات؛ فعليك بالتُّؤدة، فلأن تكون تابعًا في الخير خيرٌ من أن تكون رأسًا في الشر».
فالعاقل الزاكي من يُدرك الأمور بعقله وبصيرته، والجاهلُ يندفِعُ بعاطفَته وغفلته، العاقل المُتثبِّت يلزَمُ الهدوء والسكينة والاعتدال، ويجتنبُ العجلَة والخفة، لا يقنَط عند المصيبة، ولا يضطربُ عند النازلة، ولا يتعدَّى حدود الشر ولا سيما ذوو الرأي والريادة ومن هم في مقام الرئاسات والتوجيه وذوي الشأن.
ولقد قال الحبيبُ المُصطفى -صلى الله عليه وآله وسلم- لأصحابه -وقد سمِعوا اضطرابًا في المدينة-: «لن تُراعوا».
وتأمَّلوا ثبات أبي بكر -رضي الله عنه- عند موت النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهل هناك مُصابٌ جللٌ أعظمُ منه؟! لقد جمع الله لأبي بكر -رضي الله عنه- الصبرَ والثباتَ واليقينَ، يقول أنس -رضي الله عنه-: «خطبَنا أبو بكر -رضي الله عنه- وكنا كالثعالب، فما زال يُشجِّعُنا حتى صرنا كالأسود»، ثم كان من أبي بكر ما كان؛ من بعثِ جيش أسامة، وحروب الرِّدَّة ومانعي الزكاة، فثبَّتَ الله به الدين والأصحابَ، وقوَّى العزائم، وحفظَ الإسلام.
ومن التثبُّت: التروِّي وعدم التعجُّل في إعطاء الرأي أو إبداء الحكم أو التفسير؛ بل قد لا يلزَمُ إبداء الرأي ولا التكلُّم في كل نازلة، فما كل رأيٍ يُجهَر به، ولا كل ما يُعلم يُقال، ولا كل ما يصلُح للقول يُقال عند كل أحد.
وقد قال بعض الحكماء: «إن لابتداء الكلام فتنةً تروق، وجِدَّةً تُعجِب، ومن سكت لا يكاد يندَم، ومن تكلم لا يكاد يسلَمُ، والعجِل يقول قبل أن يعلَم، ويُجيبُ قبل أن يفهَم، ويعزِم قبل أن يُفكِّر، ويمضي قبل أن يعزِم، وخَميرُ الرأي خيرٌ من فطيره، والخطأُ زادُ العَجول، ورُبَّ رجلٍ واسع العلم بحرٍ لا يُزاحَم، لكنه قصير النظر، يُؤتَى من جُرأتهَ وتسرُّعه وقلَّة أناته وتدبُّره».
ومن معالم الهدى -يا عبد الله-: إن كنتَ ممن لم يتبيَّن له موقفٌ واضحٌ من تلقاء نفسه، أو من توجيه علماء خُبراء ثقات؛ فلتعتزِل الخوضَ في ذلك والاشتغال به، ولتلتفت إلى خاصَّة نفسك، وفي مثل ذلك جاء الحديث الصحيح في سنن أبي داود عن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «إن بين أيديكم فتنًا كقطع الليل المُظلم، يُصبِح الرجل فيها مؤمنًا ويُمسي كافرًا، ويُمسي مؤمنًا ويُصبح كافرًا، القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي». قالوا: فما تأمرنا؟! قال: «كونوا أحلاسَ بيوتكم».
وفي خبرٍ آخر في سنن الترمذي: «أمسِك عليك لسانَك، وليسَعْكَ بيتك، وابكِ على خطيئتك».
وعند أبي داود أيضًا: «إن السعيدَ لمن جُنِّب الفتن، إن السعيدَ لمن جُنِّب الفتن، إن السعيدَ لمن جُنِّب الفتن، ولمن ابتُلي فصبَر».
ومن أظهر مظاهر الاعتزال: كفُّ اللسان؛ فقد أخرج ابن ماجه في سننه عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «تكون فتنة تستنظف العرب -أي: تقتلهم-، قتلاها في النار، اللسانُ فيها أشدُّ من وَقع السيف».
وكم للإعلام في ذلك بوسائله من ضحايا وهَلكى وقتلى؟!
وفي هذه الأجواء والظروف جاء توجيه الشرع الحكيم بأن يأخذ الإنسان ما يعرف ويترك ما يُنكِر؛ ففي صحيح البخاري -رحمه الله- عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال: شبَّك النبي -صلى الله عليه وسلم- أصابعَه وقال: «يا عبد الله بن عمرو: كيف بك إذا بقيتَ في حُثالة الناس؟!». قلتُ: يا رسول الله: كيف ذلك؟! قال: «إذا مرِجَت عهودهم وأماناتُهم، وكانوا هكذا»، وشبَّك يونس أصابعَه. قلتُ: ما أصنع عند ذلك يا رسول الله؟! قال: «اتق الله -عز وجل-، وخذ ما تعرف ودع ما تُنكِر، وعليك بخاصَّتك، وإياك وعوامَّهم».
معاشر المسلمين: ومن معالم الهُدى: أن لا تُربَط كل حادثة كبرى أو نازلة عامة أو واقعة غريبة بنصٍّ شرعيٍ أو خبرٍ سمعيٍّ، فقد تحصُل الواقعة وتنزل النازلة ولا يُقابلُها نص، وقد يرد النصُّ ولم يقع تأويله بعدُ، وقد حدثت في تاريخ الأمة الطويل أحداثٌ جسام وواقعاتٌ عظام لم يتكلَّف السلف مُقابلَتها بالنصوص؛ فقد ضربَ الحَجَّاجُ الكعبةَ بالمنجنيق، وأخذ القرامطةُ الحجرَ الأسود، وجرَت حروبُ التتار، والحروب الصليبية، واحترقَ المسجدُ الأقصى، فلا ينبغي تكلُّف البحث والتعسُّف في التأويل والانشغال بالتفسير، وإنما المطلوب العمل، والأخذ بالأسباب، ومُدافعةُ الأقدار بالأقدار، وحفظ الدين وحمايةُ أهل الإسلام، وأخذُ الحيطة والحذَر: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].
ومن معالم الهُدى -يا عباد الله- الثقةُ بأهل العلم وتقديرُهم، والعلمُ بأن براءة الذمَّة وسلامة الدين تحصُل بالرجوع إليهم وسؤالهم؛ فيجبُ توقيرُهم وحفظ حقوقهم وتجنب الانتقاص من أقدارهم،

أو الحطّ من منازلهم ومقاماتهم وإن كانوا غيرَ معصومين.
وحينما حذَّر معاذٌ -رضي الله عنه- من زيغة الحكيم قال: «ولا يَثنِيَنَّك ذلك عنه؛ فلعله أن يرجع، وتلقَّ الحقَّ إذا سمعتَه؛ فإن على الحق نورًا».
ومما يحفظ حقَّهم: البُعد عن مجالس الجدال ومجالس الوقيعة، وبخاصةٍ في أوقات الفتن التي يكثُر فيها القيلُ والقال.
وأيُّ فتنة أشد حين ينتقصُ الناسُ من علمائهم والراسخين منهم والربانيين ليُعجَب كل ذي رأي برأيه، فيُشمِّر عن ساعده، ويحسُر عن ساقه ليقول: ها أنذا، لا يلتفتُ بعضُهم إلى بعض، ولا يرى بعضُهم لبعض حقًا ولا منزلةً ولا علمًا ولا رأيًا، يتقدَّمُ الأصاغرُ على الأكابر، كلهم يزعُم أنه المتكلم في مصالح الأمة، وأنه الذي يفهمُ واقعَها، وكلهم يرى أنه الأحقُّ ليقود السفينة.
ناهيكُم بالمتعجِّلين المتكلفين ممن لا يُراعي ما يرعاه القوم من الأصول وضبطِ القواعد وشدِّ المعاقد؛ فهذا الغافلُ في شأنٍ وأهلُ العلم الأثبات في شأن، وقد جعل الله لكلِّ قوم قدرًا، فالحذَرَ الحذرَ من مُناكفة أهل العلم والحكمة، فأيُّ خُذلانٍ أن لا يعرف المرءُ مقدارَ أهل العلم وعُمق علومهم وقلة تكلفهم ونورَ بصائرهم، وكل ذلك يحتاجُ إلى مُراوضة وإلى تمسُّك بأدب الإنصاف؛ لتكون الرحمةُ والإصلاح وحُسن التقويم وتزكيةُ النفوس واحترامُ العقول.
وبعدُ -حفظكم الله ورحمكم-: فإن حقيقة الفتنة: كل ما يكشِفُه الابتلاء والامتحان، ويتبيَّن به حالُ المسلم؛ من خيرٍ أو شرٍّ أو خوفٍ أو أمنٍ أو ثبات أو اضطراب، وهذه الفتن تنشأ من فهمٍ فاسد أو نقلٍ كاذب أو غرضٍ مُنحرف أو هوًى مُتَّبَع، والفتن يقعُ فيها ضعيفُ البصيرة قليل العلم، لا سيما إذا اقترنَ بذلك سوءُ القصد وغلبةُ الهوى، فهنا الفتنة العظمى والمصيبة الكبرى، والأمة تخرج -بإذن الله- بعد الإيمان به والاعتصام بحبله، تخرج بالتفكير المُستنير، والنظر الثاقب، وفقه الأسباب والمسببات، والعواقب والمقدِّمات، وإتيان البيوت من أبوابها.
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ٨٣].
وإن من معالم الهدى في أجواء الفتن: السمعَ والطاعة لولاة الأمور بالمعروف، ولزومَ جماعة المسلمين، والاجتماع على الدين، والحذرَ من الفُرقة وشقِّ صف الأمة المجتمع؛ فالجماعة رحمة والفرقة عذاب، وأكثرُ ما تتجلى عواملُ الفُرقة في أجواء الفتن والاضطراب في مسلكين: البغي وسوء التأويل.
أما البغي: فبمُجاوزة الشرع، وأما التأويل: فبتفسيرٍ من غير مُستنَد شرعيٍّ صحيح.
أيها المسلمون: هذه معالمُ هُدى يدخلُ بعضُها في بعض، ويدلُّ بعضُها على بعض، ويُفسِّرُ بعضُها بعضًا، ويُنبِّهُ ما ذُكر منها على ما لم يُذكر، مع ما يجمعُ هذه المعالم مما يجبُ من محبة المسلمين والشفقة عليهم والنُّصرة لهم؛ ففي الحديث عند مسلم عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «إنه لم يكن نبيٌّ قبلي إلا كان حقًّا عليه أن يدلَّ أمتَه على خير ما يعلمُه لهم، ويُنذرهم شرَّ ما يعلمُه لهم، وإن أمتكم هذه جُعل عافيتُها في أولها، وسيُصيبُ آخرَها بلاءٌ وأمور، وتجيءُ فتنة فيُرقِّق بعضُها بعضًا، وتجيءُ الفتنة فيقول المؤمنُ: هذه هذه، فمن أحبَّ أن يُزحزَح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيَّتُه وهو يؤمنُ بالله واليوم الآخر، وليأتِ الناسَ الذي يحبُّ أن يُؤتَى له».
والوصيةَ الوصيةَ -عباد الله-، الوصيةَ الوصيةَ في الإخلاص، والإحسان، والنُّصح، والصدق، وترك ما يَريب، والتثبُّت فيما يُسمع ويُنقل، وعدم الاغترار بالكثرة في الموافقة والمخالفة، والحذرَ الحذرَ من الاندفاع والحماس غير المُنضبط، مع لزوم الرفق والأناة والصبر وحفظ اللسان وصدق اللجوء إلى الله، والتوبة، والإنابة، والدعاء، والاستغفار، وحُسن التوكل، والاعتصام بالكتاب والسنة.
وليُعلَم أن الصبر في الأزمات، والحلمَ في النكبات، والتثبُّت إذا ترادفت الضوائق، والأناة إذا تكاثرت العوائق، كل أولئك فرسانٌ -بإذن الله- لا تكبو، وصوارم لا تنبُو، وجنودٌ لا تُهزَم، وحصونٌ لا تُهدم، واستجماعُ ذلك كله -بعون الله- لا تزيغُ معه الأبصار، ولا تطيش به الأحلام، ولا تضلُّ فيه الأفهام؛ بل تتبيَّن الأمور بحقائقها، والأحداثُ بدوافعها.
ألا فاتقوا الله -رحمكم الله-؛ فمن علم الله من قلبه الصدقَ والنصحَ والإخلاصَ وإرادةَ الصلاح والإصلاح وفقه وسدده وثبَّته وأنارَ بصيرته: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

والحمد لله رب العالمين.

من روائع الماضي

الكلمة بين الأمانة والحرية

إعداد/ الشيخ: محمد صفوت نور الدين
الرئيس العام الأسبق
لجماعة أنصار السنة المحمدية - رحمه الله

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد وآله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين... وبعد:
فإن الله سبحانه جعل الآذان مفتوحة بلا إغلاق ؛ ولذا فإن العبد لا يُحاسب على ما وصل إلى سمعه، إنما يُحاسب على ما قصد التسمع إليه، بل يُثاب إذا أنكر ما سمعه من قول منكر. وجعل الله للعين أسبابًا تصرف بها البصر، وهي عنق يديره بعيدًا، حتى يتوارى عنه ما يسوءه رؤيته، أو جفن يغلقه ؛ لذا فإن العبد لا يُحاسب على نظرة الفجاءة، إنما يُحاسب على ما استرسل فيه من البصر ؛ لحديث مسلم عن جرير رضي الله عنه: «لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليست لك الآخرة».
أما الكلام فإن المولى عز وجل حكم فيه حكمًا شديدًا، فقال سبحانه: «﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾» [ق:١٨]، فلا يعفى عن كلمة حتى تكتب ويحاسب العبد عليها، ولذلك جعل الله الأصل في العين الفتح، والإغلاق طارئ عليها؛ بينما الأصل في الفم الإغلاق، والفتح طارئ عليه ؛ أي لا يفتح إلا للحاجة، وجعل عليه أغلاقًا قوية من فكين هما أقوى عضلات الجسم، وشفتين هما من أحكم عضلاته.

الكلمة المسموعة والكلمة المكتوبة !!

هذا، وإن الكلمة المسموعة قد تصدر من الفم فيها سبق اللسان، ولكن الكلمة المكتوبة وإن كان فيها سبق القلم، إلا أن المراجعة تنفي وقوع ذلك في الكتب والصحف، ولا يجوز الاعتذار عن خطأ الكتابة في الصحف والكتب بأنه سبق قلم.
هذا، وإن ما تكتبه بعض الجرائد والمجلات من عبارة: (إن الكلام المنشور لا يُعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو الجريدة، وإنما يعبر عن رأي كاتبه) لا يعفي ذلك صاحب هذا الباب أو المسئول عنه من أنصار الشيوعية المنهارة انضموا

إلى أنصار الباطل من أهل الغرب وأخذوا يحاربون من خندق واحد يهاجمون كل فضيلة ويدعون لكل رزيلة!!

أقول لكل صاحب صحيفة أو مسئول عن جريدة أو محرر في مجلة: إن الكلمة أمانة، فإن كانت هادية نشروها وأذاعوها، وإذا وجدوا باطلاً أعرضوا عنه ولم يكلموا أحدًا فيه!!

المسائل التي يُنشر فيها آراء الكاتبين إذا حُسم القول فيها من المتخصصين، فلا مجال للرأي عندئذ فيها، ومنها ما يكون للرأي فيه مدخل، كالأمور السياسية والاجتماعية، أما المسائل الشرعية فهي أكثر المسائل ضبطًا، فلا مجال للرأي فيها، إنما هي وحي من الله سبحانه - قرآنًا وسنة - وبفهم سلف الأمة الذين نزل فيهم القرآن، وعمل به الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام وأهل القرون الفاضلة، فلا يبقى للرأي فيها من مدخل، فلا مجال لطرح قضايا الشرع للآراء يتبارى فيها الناس ويتخاصمون بآرائهم ؛ لأن الشرع لا مجال للأهواء فيه، إنما أحكام دقيقة وآداب رفيعة، فضلاً عن عقائد بينه لا يمكن اثباتها بتجربة، ولا بكلام خبير معمر أو إنسان مجرب.

استعمال الرأي في الأمور الشرعية!!

وإذا احتج أحد بأن العلماء يستعملون الرأي في تفسير آيات القرآن، وكذلك في شرح الأحاديث، فالجواب: إن كلمة الرأي في مجال الشرعيات والتي أذن فيها أهل العلم لا تعني ذلك الهوى الذي نسميه نحن رأيًا، إنما الرأي عندهم يعني ما تحمله الكلمة من معنى في ضوء الضوابط اللغوية والثوابت الشرعية، وذلك هو المعنى الذي يقول به أهل العلم في التفسير بالرأي المقابل للتفسير بالمأثور ؛ (أي تفسير القرآن بالقرآن والسنة وأقوال الصحابة وأئمة العلم).

هذا، وكثير من الناس يظن أن كثرة عدد القائلين بمسألة يعني أنها صواب، وذلك إن صدق في مسائل التجارة والصناعة والزراعة والطب والسياسة وأمور الدنيا، فلا يصدق في الأمر الشرعي مهما كثر القائلون به، إنما الحق ما وافق الكتاب والسنة، ولو قال به القليل فهو الصواب ؛ ولذا فإن الله عز وجل قال: « وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ » [الأنعام: ١١٦]، ويقول سبحانه وتعالى عن نوح عليه السلام: «وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ» [هود: ٤٠]، ولو كان الصواب مع الأغلبية لكان كلام الأنبياء مردودًا، وضلالات جند الشيطان هي المقبولة، ولكان اللواط صوابًا، والطهارة خطأ، ولكان أقوال وأفعال أهل الضلال هي الحق المتبع، ولكان أقوال الأنبياء هي الباطلة المهجورة.

أنصار الباطل من أهل الغرب!!

ونرى اليوم بعد أن انهارت الشيوعية في العالم أن أنصارها قديمًا انضموا لأنصار الباطل من أهل الغرب، وأخذوا يحاربون من خندق واحد يهاجمون كل فضيلة، ويَدْعون لكل رذيلة، فترى الإذاعي من هؤلاء يساند الصحفي من إخوانه، فيذكر في ذلك، يقول الله عز وجل: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» [الحشر: ١١].

فانظر كيف تآخى المنافقون وهم عرب وثنيون في أصلهم مع أهل الكتاب من اليهود الحاقدين، وسماهم الله سبحانه وتعالى إخوانًا؛ لاتفاقهم في المنهج الباطل، فكل واحد منهم يدافع عن الآخر ؛ مخافة أن يظهر الحق فيضيع ذلك الباطل، فيضيع باطله مع باطل الآخرين ؛ لأنهم في الدنيا أخلاء، وفي الآخرة أعداء: « الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ » [الزخرف: ٦٧].

الصحف القومية والحزبية!!

هذا، وإن الصحف القومية والحزبية في مصر يديرها ويرأسها رجال من أعلام الإعلاميين ؛ الكثير منهم له باع طويل في الجهاد الوطني معروف له، إلا أن ذلك لا يبرر ولا يعفي من مسئولية الكلمة، فالكل مسئول عن كل كلمة تُقال، خاصة إذا كان لها بالشرع تعلق، فلا يجوز له أن يسمح بما يخالف الشرع من الأقوال، (حتى لو خرج ممن ينتسبون للعلم)، والأمر هنا واضح ؛ لقوله تعالى: « وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا » [النساء: ١١٥].

فكثيرًا ما تجد في صحيفة من الصحف (صفحة) تطرح للرأي، يتناول فيها الكاتب - أيًا كانت هويته - الحديث عن مسألة من مسائل الشرع، ويدلي فيها بهواه يقرؤها كل الناس، والله جلت قدرته يقول: « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا » [الإسراء:٣٦].

أمراض القلوب وأصحاب الشبهات!!

فهناك في القلوب أمراض كامنة تثيرها الشهوات، وأخرى كامنة تثيرها الشبهات، ولكن على صاحب الشبهة أن يذهب بها إلى أهل العلم، يعرضها عليهم ليطلب زوال تلك الشبهة، فيقول سبحانه: «وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا » [النساء:٨٣].

وقد ترى الصحيفة رغبة في الشهرة أن تطرح على الناس قضية يكتب فيها كل من أراد، فيخرج على الناس من الأفكار شرًا يبلبل فكر العامة، ويثير اشمئزاز أهل العلم والحكمة، ويوقع الناس في حيرة.

نصيحة لكل صاحب صحيفة!!

وكما يقولون: نصف طبيب يفسد الأبدان، ونصف فقيه يفسد البلدان، ونصف نحوي يفسد اللسان، ونصف أصولي [أي: المتحدث في مسائل الاعتقاد] يفسد الأديان!!

أقول هذا نصيحة لكل صاحب صحيفة، أو مسئول عن جريدة، أو محرر في مجلة، أو كاتب في دورية؛ أن الكلمة أمانة، فإن كانت الكلمة هادية ووقعت منها الهداية كُتب لك أجر بقدر من اهتدى من الناس، وإن كانت الكلمة مضلة ووقع منها الإضلال كُتب عليك الإثم بقدر من أضللتهم.

ويكفي في ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يرى بها بأسا، فيهوى بها في نار جهنم سبعين خريفًا». [سنن ابن ماجه: ٣٩٧٠، وصححه الألباني].

وقوله صلى الله عليه وسلم: «إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله عز وجل بها سخطه إلى يوم القيامة» [سنن الترمذي: ٢٣١٩، وصححه الألباني].

أصحاب الحماس لنشر الضلال!!

ثم أقول لكثير من أصحاب الحماس الذين إذا وجدوا كلمة ضالة في جريدة أو مجلة طاروا بها وأشاعوها، بل حملوها في جيوبهم وصوروها ينشرونها في الناس: ففي حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع». بل إن هذه الضلالات من الأقوال كالطعن في الأعراض، ينبغي أن تعامل بدقة، كما قال سبحانه: «إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » [النور: ١٥- ٢١].

ونوصي هؤلاء المتحمسون أن ينشروا الحق ويعرضوا عن الباطل، فإذا وجدوا كلمة هادية نشروها وأذاعوها، وإذا وجدوا باطلاً أعرضوا عنه ولم يكلموا أحدًا فيه ؛ لأن القاعدة الهامة: (اذكر الخير لينتشر، ولا تذكر الشر ليندثر)، وذلك لأن الله سبحانه قال: «فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » [الرعد: ١٧]. والله من وراء القصد.

القصة في كتاب الله

يأجوج ومأجوج

الحلقة الأولى

اضطراب الأفهام والأقوال في يأجوج ومأجوج

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعدُ:

أخي الكريم: نبدأ الحديث في هذا العدد عن «ياجوج وماجوج»، وقد اضطربت أقوال الناس في شانهم اضطرابًا عظيمًا.

فمن الناس من أنكر وجودهم وأنكروا وجود السد!! وهؤلاء لا يعنينا أمرهم؛.

٢- ومنهم من يصفهم باوصاف لم يصح بها نقل صريح ولا عقل صحيح، كمن يصفهم بانهم ليسوا من ابناء ادم وحواء.

٣- وقد اختلفوا كذلك في نسبتهم.

٤- كما اختلفوا في مكان السد، وهل لا يزال موجودًا أم لا.

٥- ومنهم من توسّع في القول واعتبرهم كل مفسد من أهل الأرض في السرقة أو الحرق.

وهذه الأقوال المضطربة المتفاوتة في اضطرابها منها ما هو باطل شديد البطلان يصادم الحق، وهذا بمجرد تسليط نور الحق عليهم فيدمغه ويزهقه، فإذا هو زاهق بفضل الله ورحمته.

ومنها ما يعد اجتهادًا لبعض أهل العلم يدخل في باب من اجتهد وأخطا فله أجر ومن اجتهد وأصاب فله أجران.

وما يعنينا الآن هو أن نسلط الضوء على بعض هذه الاجتهادات لتكون ماثلة أمام القارئ، ثم نوضح الحق الواضح من الكتاب والسنة الصحيحة، والله المستعان وعليه التكلان.

وسنعرض لآراء بعض أهل العلم المتأخرين كما يلي:

أولاً: جاء في تفسير القاسمي رحمه الله المسمى بمحاسن التاويل عند تفسير قوله تعالى: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ» [الكهف: ٩٨]، قال: ناقلاً عمن أسماهم (بعض المحققين): «فلا يصح أن يستنتج من هنا القول أن السدّ يبقى إلى يوم القيامة، بل صريحه أنه إذا قامت القيامة في أي وقت كان، وكان هذا السد موجودًا دكه الله دكا، وأما إذا تاخرت فيجوز أن يُدك قبلها باسباب أخرى.

وأما قوله تعالى: «حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ» [الأنبياء: ٩٦]، فالمراد منه خروجهم بكثرة وانتشارهم في الأرض، كما يخرج الشيء المحبوس أو المضغوط إذا انفجر، والغالب أن المراد بخروجهم هذا: خروج المغول التتار، وهم من نسل ياجوج وماجوج، وهو الغزو الذي حصل منهم للأمم في القرن السابع الهجري وناهيك بما فعلوه إذ ذاك في الأرض، بعد أن نشروا فيها من الإفساد والنهب والقتل والسبي، والراجح أن السد كان موجودًا بإقليم داغستان التابع الآن لروسيا، بين مدينتي دربند وخوزار. فإنه يوجد بينهما مضيق شهير منذ القدم، يسمى عند كثير من الأمم القديمة والحديثة بالسُد وبه موضع يسمى باب الحديد وهو أثر سدّ حديدي قديم بين جبلين من جبال القوقاز الشهيرة عند العرب بجبل قاف وقد كانوا يقولون إن فيه السد كغيرهم من الأمم. ويظنون أنه في نهاية الأرض. وذلك بحسب ما عرفوه منها. ومن ورائه قبيلتا ياجوج وماجوج. انتهى.(تفسير القاسمي محاسن التاويل صـ٩٢٤).

ويواصل الشيخ القاسمي نقله عن صاحب كتاب «صفوة الاعتبار» وهو جغرافي تونسي شهير ما يؤكد أن السد هو سور الصين العظيم، وغير ذلك. والشيخ رحمه الله لم يرد على أصحاب هذه الاجتهادات بل ربما تاثر بها والله أعلم. فالشيخ رحمه الله على مكانته تاثر بهذه التاويلات.

ثانيًا: والشيخ أبو الكلام آزاد العالم الهندي المشهور، والذي قيل عنه: إنه أحد من يبحث في المعضلات التاريخية في العصر الحديث بما اجتمع له من ثقافة موسوعية دينية وتاريخية، وقد تاثر بآرائه كثير من العلماء والمؤرخين والمفسرين المحدثين نلخص رأيه في هذه القصة على النحو التالي:

«فهو يبدأ بحثه انطلاقًا من كتب أهل الكتاب، ومن خلال استعراضه لمراجعهم عمومًا وسفر أشعياء خصوصًا يصل في النهاية إلى أن ذا القرنين هو «كورس» الفارسي الذي كان في القرن السادس قبل الميلاد والذي عثر له في إيران على تمثال له قرنان وجناحان، وقال: إن كل ما ذكره القرآن عن ذي القرنين ينطبق على كورش فهو على الدين الصحيح القائم على التوحيد والنية الصادقة، والقول الصادق والعمل الصالح، وهو الذي توجه في الفتح حتى بلغ صحراء بلخ في المشهد وتوجيه ناحية المغرب حتى وصل إلى بحر إيجة قريبًا من إزير، وتوجه نحو الشمال وبنى السد الذي بقي معروفًا باسمه في المكان الذي يسمى الآن بمضيق دار يال والموجود الآن في جبال القوقاز.

وخطا من قال بان السد هو السد المعروف بباب ديند أو باب الأبواب، والممتد من بحر الخزر إلى سلسلة جبال القوقان، وخطا من ذهب إلى أنه سد الصين العظيم، هذا كما خلص إلى أن ياجوج وماجوج هم التتار والمغول الذين كانت تقذف بهم منغوليا مرة بعد مرة، وأن سد ذي القرنين هو الذي أغلق تحركاتهم نحو الغرب.

وأنا أذكر أخي القارئ الكريم أني لا أذكر هذا الذي ذكرت على أنه حقائق، بل هي اضطرابات في الأقوال حول موضوع ياجوج وماجوج، وأحسن ما يقال في بعضها أنها مجرد اجتهادات قابلة للخطا والصواب، وتبقى الحقيقة الناصعة والحق الذي ليس بعده شك ما جاء به كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا ما سنعرض إليه إن شاء الله بعد قليل، وقبل أن نشرع في بيان الحق من الكتاب والسنة ننظر فيما سبق من أمور نظرة تامل:

١- معظم الذين أنكروا ياجوج وماجوج هم الذين أنكروا ظهور المهدي ونزول عيسى ابن مريم في آخر الزمان، وهؤلاء لا يعتمدون في إنكارهم على شيء إلا على عقولهم، وهؤلاء يقال لهم ولأمثالهم: إن أصل فساد الدين هو تقديم الراي على الوحي، والهوى على الشرع، والعقل على النقل، ونقول لهم أيضا: من لم يسلم للمنقول، وقابله برده بالعقول فهو ضالُ مخبول، ومقابلة النص الواضح الصريح بالرأي الفاسد القبيح هي بدعة قبيحة أول من وقع فيها إبليس، والذي يفعل ذلك هو من جملة أتباعه المقربين.

وقصة ياجوج وماجوج من أشراط الساعة، ومن مقتضيات الإيمان بالغيب: الإيمان بها وخصوصًا قد جاء بها الحق (سبحانه) في كتابه والرسول الكريم في سنته، وقد ذكر ابن القيم أحوال القلوب عند ورود الحق عليها فقال: «حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها: قلب يُفتن به كفرًا وجحودًا، وقلب يزداد به إيمانًا وتصديقًا، وقبل يتيقنه فتقوم عليه به الحجة وقلب يوجب له حيرة وعمى فلا يدري ما يراد به». اهـ. من إغاثة اللهفان.

وأي فتنة أعظم من أن ياتي الخبر في القرآن الكريم، وياتي الحديث الصحيح عن المعصوم فينكره المنكرون بحجة أنه يخالف العقل في زعمهم، ويخالف العلم الذي لم يدع مجالاً في الأرض إلا بيّنه وكشفه، وهذا في حد ذاته باطل عقلاً، فضلاً عن كونه باطلاً شرعًا، نسال الله الهداية والتوفيق وللحديث بقية إن شاء الله والحمد لله رب العالمين.

فرحة العيد تُذكّر بأخوة الدِّين

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله وفق من شاء لطاعته فكان سعيهم مشكورًا، ثم أجزل لهم العطاء والمثوبة فكان جزاؤهم موفورًا، واصلي وأسلم على خير من صلى وصام وتلا القرآن، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه البررة الكرام، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعدُ:

فحريٌ بكم، يا من وُفِّقتم لصيام شهر رمضان، وتقربتم إلى ربكم بأنواع القربات، راجين الأجر والثواب من الله أن تفرحوا بعد ذلك بعيدكم السعيد، فإنه اليوم الذي توَّج الله به شهر الصيام، وافتتح به أشهر الحج إلى بيت الله الحرام، وأجزل فيه للصائمين والقائمين جوائز البر والإكرام، عيد امتلأت القلوب به فرحًا وسرورًا، وازدانت به الأرض بهجة ونورًا؛ لأنه اليوم الذي يخرج فيه المسلمون إلى مصلاهم، لربهم حامدين معظمين، وبنعمته بإتمام الصيام والقيام مغتبطين ولخيره وثوابه مؤملين، يسألون ربهم الجواد الكريم أن يتقبل عملهم، وأن يتجاوز عن مسيئهم وأن يعيد عليهم مثل هذه الأيام، وهم في خير وأمن وإيمان واجتماع على الحق والعبادة وابتعاد عن الباطل والعصيان.

حُقَّ لمن امتثل أمر مولاه فصام وصلَّى وقام أن يفرح يوم العيد، كيف لا وقد قال الله تعالى: «قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» [يونس: ٥٨]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «للصَّائم فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بفطره، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِه». [متفق عليه: البخاري: ١٩٠٤، ومسلم: ١١٥١].

والعيد غبطةٌ في الدين والطاعة وبهجة، في الدنيا والحياة، ومظهر القوة والإخاء، إنه فرحةٌ بانتصار الإرادة الخيرة على الأهواء والشهوات، والرضا بطاعة المولى، والوعيد الكريم بالفوز بالجنة والنجاة من النار، فالعيد موسم بهجة، ابتهاجٌ بالتوفيق للطاعة، لكن مع هذه البهجة، وهذا الفرح الممدوح حري بنا جميعًا أن نتذكر أمورًا مهمة لا ينبغي أن تغيب عن أذهاننا في يوم عيدنا ؛ لأن من الناس من تطغى عليه فرحة العيد فتستبد بمشاعره ووجدانه لدرجة تنسيه واجب الشكر والاعتراف بالنعم، وتدفعه إلى الزهوِّ بالجديد، والإعجاب بالنفس حتى يبلغ درجة المخيلة والتباهي، وما علم هذا أن العيد قد يأتي على أناس قد ذلوا من بعد عزّ، فتهيج في نفوسهم الأشجان، وتتحرك في صدورهم كثيرٌ من الأحزان.

ذاقوا من البؤس ألوانًا بعد رغد العيش، وتجرعوا من العلقم كيزانًا بعد وفرة النعم، فاعتاضوا عن الفرحة بالبكاء، وحلّ محلّ البهجة الأنين والعناء.

تذكروا - إخواني - وأنتم تعيشون فرحة العيد إخوانًا لكم اخترمتهم المنية وأدركهم الموتُ فلم يدركوا يومكم هذا، فهم في قبورهم محتجزون، وبأعمالهم مرتهنون، وإنكم إلى ما صاروا إليه صائرون، فهم السابقون، وإنا إن شاء الله بهم لاحقون، فلا تنسوهم من دعوة صالحة بأنْ يقيل اللهُ عثراتهم ويغفر زلاتهم ويتجاوز عن ذنوبهم.

وتذكروا - إخواني- وأنتم تعيشون فرحة العيد بصحة وعافية إخوانًا لكم أقعدهم المرض، وأعاقهم عن مشاركتكم الفرحة، فاحمدوا الله على ما أنتم فيه من صحة وعافية وسلامة، ولا تنسوا إخوانكم أولئك من دعوةٍ صالحةٍ أنْ يشفي مريضهم، ويزيل بأسهم، ويفرج همهم، ويكشف كربتهم.

وتذكروا - إخواني- وأنتم تعيشون فرحة العيد بأمن وأمان وراحة واطمئنان إخوانًا لكم أهلكتهم الحروب، وأرقتهم الخطوب وأقلقتهم الفتن، وتسلط عليهم العدوُّ، فأُريقتْ فيهم الدماء، ورمِّلت النساء، ويُتِّم الأطفال، ونُهبت الأموال، فاحمدوا الله على ما أنتم فيه من أمن وأمان، ولا تنسوا إخوانكم أولئك من دعوة صالحة بأن ينفس الله كربتهم، ويفرج همهم، ويكبت عدوهم.

وتذكروا - إخواني- وأنتم تعيشون فرحة العيد بالحلل البهية والملابس الجميلة إخوانًا لكم أرَّقهم الفقرُ، وأقعدتهم الحاجة، فمنهم من لم يجد لباسًا يواريه، أو مسكنًا يؤويه، أو طعامًا يشبعه ويغذيه، أو شرابًا يرويه، فاحمدوا الله على ما أنتم فيه من نعمة وخير، ولا تنسوا إخوانكم هؤلاء من دعوات صالحات بأنْ يغنيهم الله من فضله، يغني فقيرهم، ويشبع جائعهم، ويكسو عاريهم، ويسد حاجاتهم، ويكشف فاقتهم، ولا تنسوهم كذلك من مدِّ يد المساعدة لهم، إمَّا بمال أو لباس أو طعام أو لحاف: «وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا» [المزمل: ٢٠].

وتذكروا - إخواني - وأنتم تعيشون فرحة العيد إخوانًا لكم قيدتهم الذنوب، وكبلتهم الخطايا، فمضى المؤمنون المجدّون في طاعة الله، وتنافس الصالحون في التقرب إليه سبحانه، وهؤلاء في لهوهم وغيهم سادرون، وعن طاعة الله والتقرب إليه متقاعسون، وعلى المعاصي والخطايا والآثام مكبون، تمرُّ عليهم مواسم العبادة والمنافسة في فعل الخير فلا يتحركون، فاحمدوا الله على ما أمدكم به من توفيقه، وما هداكم إليه من التقرب إلى مرضاته، قال الله تعالى: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» [فاطر: ٣٢]، لا تنسوا إخوانكم أولئك من دعوةٍ صالحة أن يهديهم ربهم إلى الخير، وأن يردَّهم إلى الحق ردًا جميلا، وأن يصلح ضالهم، ويوفق حائرهم، ويشرح صدورهم، ويحبب إليهم الإيمان ويزينه في قلوبهم.

استدامة أمر الطاعة وامتداد زمانها:

وتذكروا - إخواني - وأنتم تعيشون فرحة العيد، إن استدامة أمر الطاعة وامتداد زمانها زاد الصالحين، وتحقيق أمل المحسنين، وليس للطاعة زمن محدود ولا للعبادة أجل معدود، بل هي حق لله على العباد يعمرون بها الأكوان على مرِّ الأزمان، وشهر رمضان ميدان لتنافس الصالحين، وتسابق المحسنين، يسمون بأرواحهم إلى الفضائل ويمنعون عنها الرذائل، ويجب أن تسير النفوس على نهج الهدى والرشاد بعد رمضان، فالمسلم حقًا من تكون تقوى الله دثاره طيلة عمره، ولباسه مدة حياته، والمؤمن الحق من يكون عمله بالطاعات، واجتنابه للمعاصي، ديدنًا له ومنهاجًا، إلى أن يتوفاه الله، فلا تزيده مواسم الخير إلا اجتهادًا في العبادة، وحرصًا على الطاعة، قرأ الحسن البصري رحمه الله تعالى قوله: «وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» [الحجر: ٩٩] ، فقال: «إن الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلا دون الموت». [الزهد لابن المبارك صـ ٢٧١]

وقال ابن المبارك في الزهد: واعلموا - إخواني- أن للقبول والربح في هذا الشهر علامات، وللخسارة والرد أمارات، وأنَّ من علامة قبول الحسنة فعل الحسنة بعدها، ومن علامات السيئة: السيئة بعدها، فاتبعوا الحسنات بالحسنات تكن علامة قبولها، وأكثروا من الحسنات بعد السيئات تكن كفارة لها ووقاية من خطرها، قال الله تعالى: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ» [هود: ١١٤].

والمعنى: فمن كانت حاله بعد رمضان أحسن منها قبله؛ بأن كان مُقبلاً على الخير، حريصًا على الطاعة، مواظبًا على حضور الجمع والجماعات، بعيدًا عن المعاصي والسيئات، فهذه أمارةُ قبول عمله، إن شاء الله تعالى.

أما من كان حاله بعد رمضان كحاله قبله، من ترك الطاعات والانغماس في المعاصي والسيئات، فهذا أمره إلى مولاه.

وأخيرًا تذكروا إخواني وأنتم تعيشون فرحة العيد أن يكون هذا العيد نقطة تحول من حياة الأمة من الفرقة والاختلاف إلى الاجتماع على كلمة التوحيد والائتلاف، إنَّ أخوة الإسلام هي روح الإيمان القوي، وأساس المشاعر الكريمة التي يكنها المسلم لإخوانه، حتى إنه ليحيا بهم، ويعيش معهم وفيهم، فكأنهم جميعًا أغصان تفرّعت من دوحة عظيمة متسعة واحدة، وانبثقت من أصل واحد، لتبقى القاعدةُ الكبرى التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي العالمي، تضمه أصرة خاصة، وتظله راية واحدةٌ لا ثاني لها، إنها راية الإيمان، وأصرة الأخوة في الإسلام، يقول الله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» [الحجرات: ١٣- ١٤].

والحمد لله رب العالمين.

مسائل فقهية

العاق لوالديه وهل يجوز حرمانه من عطيتهما

(نقلاً عن مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، السنة الخامسة والعشرون، العدد ٩٧)

سؤال مفاده أن ولدًا يهجر والديه فلا يسلم عليهما ولا يزورهما في مرضهما، وقد نصحه إخوته وأقرباؤه فلم ينته عن عقوقه، وعندما أراد أبوه عطية أولاده قيل له بالا يعطيه؛ لأنه عاق ولا ينبغي بره على عقوقه ؟

والواجب على الولد بر والديه في حياتهما وبعد مماتهما، فبرهما في حياتهما بملاطفتهما والإحسان إليهما واجتناب ما يسيء إليهما، وبرهما بعد مماتهما بالترحم عليهما، والدعاء والاستغفار لهما، وإكرام صديقهما، وهذا الواجب مترتب حكمًا لا ينفك عن الولد في حياته؛ عملاً بقول الله عز وجل: «وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا» [النساء: ٣٦]، وقوله عز ذكره: «وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ» [العنكبوت: ٨]، وقد حرم الله عقوقهما في قوله عز ذكره: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا» [الإسراء: ٢٣- ٢٤]، وقوله عز ذكره: «فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ» [محمد: ٢٢، ٢٣]، وقوله: «وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ» [الرعد :٢٥].

والأحاديث النبوية في تحريم عقوق الوالدين كثيرة ومعلومة، منها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس...» الحديث [البخاري: ٢٦٥٤]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ولما قيل: بلى يا رسول الله، قال: «الشرك بالله، وعقوق الوالدين..» الحديث. [البخاري: ٢٦٥٤].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه». فقيل: يا رسول الله، كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه». [البخاري: ٥٩٧٣].

والمسلمون في سلفهم وخلفهم مجمعون على أن عقوق الوالدين من أكبر الذنوب وأعظمها، وأنه من أسوء الصفات وأرذل الرذائل وأفحش الأفعال، ولا يفعله إلا من عظم ذنبه وأضل نفسه وتعرض لعقاب الله في الدنيا والآخرة؛ لأن الله قد جعل من أكبر الكبائر وتوعد فاعله بسوء الجزاء.

والأحاديث النبوية في وجوب بر الوالدين كثيرة معلومة، منها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر، أحدهما أو كليهما، فلم يدخل الجنة». [مسلم: ٢٥٥١].

ومنها قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه». [مسلم: ١٥١٠]، ومنها ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: أقبل رجل إلى نبيِّ الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى. قال: «فهل من والديك أحد حيٌّ؟» قال: نعم، بل كلاهما، قال: «فتبتغي الأجر من الله تعالى؟» قال: نعم. قال: «فارجع إلى والديك، فأحسن صحبتهما». [مسلم: ٢٥٤٩].

هذا ما مناطه حقوق الوالدين وتحريم عقوقهما، واعلم أن الأصل عدم التفضيل في العطية بين الأولاد، ففي مذهب الإمام أبي حنيفة ينبغي للوالد أن يسوي بين الأولاد في العطية.

أما في مذهب الإمام مالك، فقد سُئل الإمام عن الرجل يكون له ولد فيبره بعضهم فيريد أن يعطيه من ماله دون بعض أذلك له؟ فقال- رحمه الله-: نعم، لا بأس به ، وذكر ابن رشد إنما أجاز الإمام مالك أن يعطي الرجل العطية لمن يبره منهم؛ لأنه لم يقصد بذلك إلى تفضيل بعض ولده على بعض وإنما أعطى البار جزاء على بره، وحرم العاق أدبًا لعقوقه؛ فلا مكروه في ذلك إن شاء الله.

وإنما المكروه أن يفضل بعض ولده على بعض فيخصه بعطية مخافة أن يكون ذلك سببًا إلى أن يعقه الذي حرمه عطيته أو يقصر بما يلزمه من البر به.

وفي مذهب الإمام الشافعي، يسن للوالد العدل في عطيته أولاده بأن يسوي بين الذكر والأنثى؛ لحديث النعمان بن بشير أنه قال: وهبني أبي هبة فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاتى أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إن أم هذا أعجبها أن أشهدك على الذي وهبت لابنها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا بشير، ألك ولد سوى هذا؟» قال: نعم. قال: «كلهم وهبت له مثل هذا؟» قال: لا، قال: «فارجعه، اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم». وفي لفظ آخر قال: «فاشهد على هذا غيري». وفي لفظ آخر: «لا تشهدني على جور». [نهاية المحتاج ٤١٥/٥].

قال المصنف: فإن ترك العدل بلا عذر كره عند أكثر العلماء خلافًا لمن ذهب إلى حرمته والأصل في ذلك خبر البخاري: «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم». وخبر الرواية الأخرى (رواية الإمام أحمد أنه قال: لا تشهدني على جور بنيك عليك، من الحق أن تعدل بينهم)، وفي رواية مسلم (أشهد على هذا غيري)، فامره بإشهاد غيره، صريح في الجواز، وتسميته جورًا باعتبار ما فيه من انتفاء العدل المطلوب، فلو علم من المحروم الرضا وظن عقوق أخيه لفقره ورقة دينه لم يستحب له الرجوع، ولم يكره التفضيل، كما لو حرم فاسقًا لئلا يصرفه في معصيته أو عاقًا أو زاد أو آثر الأحوج المتميز بنحو فضل، كما فعله أبو بكر بتفضيل عائشة رضي الله عنهما.

وأما في مذهب الإمام أحمد، فالمشروع في عطية الوالد القسمة بينهم على قدر ميراثهم، فيجعل للذكر مثل حظ الأنثيين.

قلت: الأصل عدم جواز التفضيل بين الأولاد في العطية من والديهم لما في ذلك من الآثار السيئة على المفضل عليهم فمن العدل أن يساوي الوالدين بين أولادهم في العطية لأن ذلك من العدل والعدل مما أمر به الله- عز وجل- في قوله: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ» [النحل: ٩]، كما أمر به رسوله صلى الله عليه وسلم فيما ذكر آنفا من قصة النعمان بن بشير... هذا في العموم، أما إذا كان الولد قد ارتكب ما حرم الله عليه من عقوق والديه أو أحدهما، مع علمه بما يجب عليه من برهما وصلتهما فلا يجب له البر من أحدهما أو كليهما، فالحسنة تجزى بالحسنة والسيئة تجزى بالسيئة ولا يستوي الخبيث والطيب، كما قال الله عز وجل: «قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ» [المائدة: ١٠٠]، فلو بر الوالد ولده العاق لاستوى في ذلك المطيع والعاصي والبار والعاق، وهذان لا يستويان، ناهيك بأن في حرمان العاق من بر والديه أدب له ومانع له من الاستمرار في عقوقه.

وخلاصة المسألة: وجوب بر الولد لوالديه وتحريم عقوقهما، ووجوب العدل في عطية الوالد ولده، وذلك بالتساوي بينهما، مع استثناء العاق من عطيتهما؛ لأن في ذلك أدبًا له ومانعًا له من الاستمرار في عقوقه.

والله الموفق.

واحة التوحيد

من نور كتاب الله

حرمة دماء المسلمين

قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

من فضائل الصحابة

أبو بكر الصديق المرجع للأمة بعد رسول الله

عن جبير بن مطعم قال: أتت النبي صلى الله عليه وسلم امرأة فكلمته في شيء، فأمرها أن ترجع إليه، قالت: يا رسول الله أرأيت إن جئت ولم أجدك؟ كأنها تريد الموت. قال: فإن لم تجديني فائتي أبا بكر. [متفق عليه].

زكاة الفطر قبل صلاة العيد

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين، من أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات. [سنن أبي داود ١٦١١ وحسنه الألباني].

أحاديث باطلة لها آثار سيئة

«براءة من الكبر: لبوس الصوف ومجالسة فقراء المسلمين وركوب الحمار، واعتقال العنز» ، الحديث ضعيف جدًا. ويعارض حديث الرسول الصحيح في تعريف الكبر وهو رد الحق واحتقار الناس. [السلسلة الضعيفة للألباني].

حكم ومواعظ

عن الحسن رحمه الله قال: «المؤمن في الدنيا كالغريب لا ينافس في عزها، ولا يجزع من ذلها، للناس حال وله حال، الناس منه في راحة، ونفسه منه في شغل». [شعب الإيمان للبيهقي].

الرجوع إلى الله يصلح حكام المسلمين!

قال ابن القيم: عن مالك بن دينار قال: قرأت في الحكمة يقول الله عز وجل: أنا الله مالك الملوك قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، ولكن توبوا إلي أعطفهم عليكم، وفي مراسيل الحسن: إذا أراد الله بقوم خيرًا جعل أمرهم إلى حلمائهم وفيئهم عند سمحائهم، وإذا أراد بقوم شرًا جعل أمرهم إلى سفهائهم وفيئهم عند بخلائهم» [الجواب الكافي ص ٣١].

إعداد: علاء خضر

من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم

صيام ست من شوال

عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من صام رمضان ثم أتبعه ستًا من شوال، كان كصيام الدهر» [صحيح مسلم ١١٦٤].

من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم

عن العرباض بن سارية رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إني عند الله مكتوب خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم بأول أمري: دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني وقد خرج لها نور أضاء لها منه قصور الشام» [أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢٠٣) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح].

من أقوال السلف

عن ابن عون أنه كان يقول عند الموت: «السنة السنة، وإياكم والبدع، حتى مات». وعن أبي العالية قال: «من مات على السنة مستورًا، فهو صدّيق». وكان يقول: «الاعتصام بالسنة نجاة» [كتاب السنة للبربهاري].

من جوامع الأدعية

عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون. متفق عليه.

من حكمة الشعر

قال الشاعر في التقاتل على الولاية والحكم والذي هو من مصلحة الأعداء نسأل الله أن يسلم بلاد المسلمين، قال:

أمن السياسة أن يقتل بعضُنا بعضًا ليدرك غيرُنا الآمالا
أو كلما طمع القويُّ شراهة أكل الضعيف تحيفًا واغتيالا

قواعد ذهبية في توحيد رب البرية

قال شيخ الإسلام: «إنه إذا أصابك مضرة كالخوف والجوع والمرض، فإن الخلق لا يقدرون على دفعها إلا بإذن الله، ولا يقصدون دفعها إلا لغرض لهم في ذلك.. فلا تُعلّق بهم رجاءك. [مجموع الفتاوى ١/ ٣١].

باب الفقه

صفة العمرة

الحلقة الأولى

إعداد/ د. حمدي طه

الحمد لله وأصلي وأسلم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:
كنا قد بدأنا في العدد السابق بالحديث عن العمرة، وذكرنا صفتها إجمالاً، وفي هذا العدد نبدأ بالحديث عنها بشيء من التفصيل.

أولا: أركان العمرة:

١- الإحرام:
وهُوَ نِيَّةُ الْعُمْرَةِ، وليس المقصود به لبس ملابس الإحرام كما يظن بعض الناس – وهو محل اتفاق بين الفقهاء، وإن كان الحنفية يرون أنها شرط، ودليل ذلك قول الله تعالى: «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين» وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى». وقد سبق الكلام على حقيقة النية، وأن محلها القلب. [فقه السنة ١/٦٥٤].
ويُشرع له التلفظ بما نوى، فإن كانت نيته العمرة قال: «لبيك عمرةً» أو «اللهم لبيك عمرةً»، والأفضل أن يكون التلفظ بذلك بعد استوائه على مركوبه من دابة أو سيارة أو غيرهما؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أهلَّ بعد ما استوى على راحلته، وانبعثت به من الميقات للسير. هذا هو الأصح من أقوال أهل العلم. (صفة العمرة ابن باز ص١٣).

٢- الطواف بالبيت.
وهو محل اتفاق بين الفقهاء أيضًا.

٣- السعي بين الصفا والمروة.
وقد ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أن السعي ركن؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر عائشة- رضي الله عنها- أن تطوف وتسعى، وقال: «طوافك بالبيت وبالصفا والمروة يسعك لحجك وعمرتك» رواه مسلم.
ويَحْرُمُ تَرْكُ شَيْءٍ مِنْ أَرْكَانِ الْعُمْرَةِ، وَلاَ يَتَحَلَّل مِنْ إِحْرَامِ الْعُمْرَةِ حَتَّى يُتِمَّ مَا تَرَكَهُ. وإلا فسدت العمرة. (الموسوعة الفقهية الكويتية ٣١٨/٣٠ بتصرف).

ثانيا: واجبات العمرة هي:

١- أن يكون الإحرام من الميقات المعتبر له:
وهو المكان الذي يُحرم منه المعتمر. والمواقيت هي: [ذو الحليفة: لأهل المدينة]، [الجحفة: لأهل الشام]، [قرن المنازل: لأهل نجد] [يلملم: لأهل اليمن]، [ذات عرق: لأهل العراق].
فإذا كان الإنسان قاصداً مكة يريد العمرة فإن الواجب عليه أن لا يتجاوز الميقات حتى يحرم؛ لحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يهل أهل المدينة من ذي الحليفة، ويهل أهل اليمن من يلملم، وذكر الحديث وفيه: (هنَّ لهنَّ، ولمن مرّ عليهن من غير أهلهنّ، لمن كان يريد الحج والعمرة). متفق عليه.
وهذا خبرٌ بمعنى الأمر، ومذهب الإمام مالك أنه لا يُستحب لأحد، بل يكره أن يُحرم قبل الميقات المكاني، وهو الموافق لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة خلفائه الراشدين، (مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٧٥/٢٠).
فإذا كان الإنسان قاصداً مكة يريد العمرة، فإن الواجب عليه أن لا يتجاوز الميقات حتى يحرم فإن ترك الإحرام من الميقات فعل غير صحيح، فإن استطاع المعتمر الرجوع إلي الميقات رجع ونوى منه، وإن لم يستطع فالواجب عليه عند أهل العلم أن يذبح فدية في مكة ويوزعها على الفقراء. (فتاوى نور على الدرب، لابن عثيمين بتصرف ١٥٥/٧).

٢- الحلق أو التقصير:
ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أن الحلق أو التقصير نُسُك واجب؛ لقوله تعالى: «ثم ليقضوا تفثهم» [الحج:٢٩/٢٢] ، ولما روى أنس: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى منى، فأتى الجمرة، فرماها، ثم أتى منزله بمنى ونحر، ثم قال للحلاق: خذ، وأشار إلى جانبه الأيمن، ثم الأيسر، ثم جعل يعطيه الناس» ، والحلق أفضل لما روى أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم اغفر للمُحلقين، قالوا: يا رسول الله، وللمقصرين؟ قال: اللهم اغفر للمحلقين، قالوا: يا رسول الله، وللمقصرين؟ قال: وللمقصرين» متفق عليه. (الفِقْهُ الإسلاميُّ وأدلَّتُهُ د. وَهْبَة الزّحَيْلِي ٥٧٥/٢).
ومن ترك واجباً سواء كان ذلك سهواً أو جهلاً، فإن عليه أن يجبره بدم عند جماهير العلماء. ودليل ذلك ما روي عن ابن عباس أنه قال: (من نسي من نسكه شيئاً أو تركه فليهرق دماً). (شرح الزاد للحمد ٢٢٧/١١).

ثالثاً: أعمال العمرة

وأول هذه الأعمال هو الإحرام، وهو نية الدخول في النسك، ويسن له:
١- الاغتسال: وَهُوَ سُنَّةٌ ؛ لِحَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ: أَنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَجَرَّدَ لإِهْلاَلِهِ وَاغْتَسَل. أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ.
والغسل سُنَّة لكل مريد للإحرام، الذكور والإناث، الجنب وغير الجنب، الحائض والنفساء.. (الموسوعة الفقهية الكويتية ١٧١/٢بتصرف).
٢- التطيب: يستحب أن يتطيب في رأسه ووجهه بما تيسر من أنواع الطيب ؛ كالمسك، والبخور، وغير ذلك ؛ لقول عائشة – رضي الله عنها –: (كنت أطيب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لإحرامه قبل أن يحرم ولحله قبل أن يطوف بالبيت) متفق عليه. (المختصر في العبادات خالد بن علي المشيقح ١٦٦/١).
أَمَّا تَطْيِيبُ الثَّوْبِ قَبْل الإِحْرَامِ فَمَنَعَهُ الْجُمْهُورُ، وإذا طيبها لم يلبسها حتى يغسلها أو يغيرها.. (الموسوعة الفقهية الكويتية ١٧١/٢بتصرف).
٣- يستحب للذكر قبل الإحرام أن يتجرد من المخيط، وهو كل ما يخاط على قدر البدن أو بعضه كالقميص والسراويل ؛ لأنه – صلى الله عليه وسلم – تجرد لإهلاله، ويستبدل الملابس المخيطة بإزار ورداء أبيضين نظيفين، ويجوز بغير الأبيضين مما جرت عادة الرجال بلبسه.
والتجرد عن المخيط قبل نية الإحرام سُنَّة، أما بعد نية الإحرام فهو واجب. ولو أحرم وعليه ثيابه المخيطة صح إحرامه، ووجب عليه نزع المخيط. (المختصر في العبادات خالد بن علي المشيقح ١٦٦/١).
ولا بأس بغسل ملابس الإحرام، ولا بأس أن يغيّرها، ويستعمل غيرها بملابس جديدة أو مغسولة.
ومن أخطاء بعض الناس عند الإحرام الاضطباع (وهو إخراج الكتف الأيمن، وجعل طرفي الرداء تحت إبط اليد اليسرى)، وهذا خطأ، فالاضطباع خاص بالطواف وليس أي طواف بل في طواف القدوم خاصة وطواف العمرة.(العمرة لسليمان اللهيميد ص٣).
أما المرأة فتلبس ما شاءت من الثياب غير أن لا تتبرج بزينة؛ لأنَّ إحرام المرأة في وجهها، لحديث: «لا تنتقب المرأة المحرمة، ولا تلبس القفازين» أخرجه الشيخان.
ويُباح (للمرأة المحرمة) سدل خمارها على وجهها إذا احتاجت إلى ذلك بلا عصابة، وإن مس الخمار وجهها فلا شيء عليها؛ لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم محرمات، فإذا حاذونا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها، فإذا جاوزونا كشفناه» أخرجه أبو داود منسك الإمام ابن باز ص٢٦.
٤- الصلاة قبل الإحرام: اختلف العلماء في استحبابها؛ فذهب الجمهور إلي أنه يُسَنُّ لِلْمُحْرِمِ أَنْ يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ قَبْل الإِحْرَامِ باتفاق الأئمة، لِحَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْكَعُ بِذِي الْحُلَيْفَةِ رَكْعَتَيْنِ. أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.
وقال صلى الله عليه وسلم: (أتاني آت من ربي، وقال: صل في هذا الوادي المبارك، وقل: عمرة في حجة) أخرجه البخاري. وهذا يدل على شرعية صلاة الركعتين، وَتُجْزِئُ الصَّلاَةُ الْمَكْتُوبَةُ عَنْ سُنَّةِ الإِحْرَامِ اتفاقا كَذَلِكَ، كَمَا فِي تَحِيَّةِ الْمَسْجِدِ. وقال آخرون: ليس في هذا نص فإنَّ قول: (أتاني آتٍ من ربي وقال: صل في هذا الوادي المبارك) يحتمل: أن المراد صلاة

الفريضة في الصلوات الخمس، وليس بنص في ركعتي الإحرام، وكونه أحرم بعد الفريضة لا يدل على شرعية ركعتين خاصة بالإحرام، وإنما يدل على أنه إذا أحرم بالعمرة أو بالحج بعد صلاة، يكون أفضل إذا تيسر ذلك. (مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز ٦٧/١٧بتصرف)، فإذا أتم هذه الأعمال، فقد تهيأ للإحرام، وليس فعل هذه الأمور إحراماً كما يظن كثيرٌ من العوام ؛ لأن الإحرام هو نية الدخول والشروع في النسك.

محظورات الإحرام: وهي ما يحرم على المحرم فعله.

١- لبس المخيط: وهو كل ما خيط على قياس عضو، أو على البدن كله، مثل: القميص، والسراويل، والجبة، والصدرية، وما أشبهها، وليس المراد بالمخيط ما فيه خياطة كما يفهمها كثير من العامة..(الشرح الممتع ١٢٦/٧بتصرف)، فعن ابن عمر قال: قال رسول الله: (لا يلبس المحرم القميص ولا البرانس، ولا السراويل). متفق عليه.

قلت: وعلي ذلك فلا حرج في لبس حزام الوسط، وكذا ما يوضع فيه النقود، وكذا النعلين، وإن دخل كل هذه الأشياء الخياطة، فليس هذا مما يدخل في معني المخيط، وكذلك لا باس للمحرم أن يلبس الخاتم، والساعة، ونظارة العين، وسماعة الأذن وغيرها.

ولفظ المخيط من عبارات الفقهاء التي لم يرد ذكرها في السنة؛ ولذلك أحدث فهمها إشكالا للعامة. قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله: فالتعبير النبوي أولى من هذا، لأن فيه عدًا وليس حدًا وليس فيه إيهام. (الشرح الممتع على زاد المستقنع ١٢٨/٧).

٢- تغطية الراس بملاصق: لحديث ابن عمر السابق قال: قال رسول الله: (لا يلبس المحرم العمائم...). متفق عليه.

وعلى هذا فلا يجوز للمحرم أن يضع غطاء على رأسه، سواءً كان عمامة أو كان طاقية ونحوها، فإنه يحرم عليه أن يغطي رأسه، وهذا بإجماع العلماء رحمة الله عليهم.(شرح زاد المستقنع للشنقيطي ٤٢٤/٥) وإنه ليس النهي عن مجرد التغطية، بل النهي عن التغطية الملاصقة التي هي بحكم الملبوسات. وقد أجمع أهل العلم على أن من دخل قبة أو داراً، فإن ذلك جائز ولا فدية عليه. ودليل ذلك: ما رواه مسلم من حديث جابر وهو حديث طويل وفيه: (أن النبي صلى الله عليه وسلم: ضُرِبَتْ له قبة بنمرة).(شرح الزاد للحمد ٧٥/١١)

٣-النقاب ولبس القفازين: عن ابن عمر قال: قال رسول الله: (ولا تنتقب المحرمة ولا تلبس القفازين). متفق عليه.

٤- إزالة شعر الراس: (والحق العلماء به بقية شعر البدن). قال تعالى: «ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله»، ولا شك أن الدليل أخص من المدلول، فالمنهي عنه في الدليل حلق الراس. ولا يصح الاستدلال بالأخص على الأعم، ولكنهم يقولون: نحن نقيس حلق بقية الشعر على شعر الرأس. وقال ابن حزم، والظاهرية: لا نسلم القياس، لم ينهنا إلا عن حلق شعر الرأس، فلماذا نضيق على عباد الله، ولكن البحث النظري له حال، والتطبيق العملي له حال أخرى، ولو أن الإنسان تجنب الأخذ من شعوره كشاربه، وإبطه، وعانته احتياطاً لكان هذا جيداً، لكن أن نلزمه ونؤثمه إذا أخذ مع عدم وجود الدليل الرافع للإباحة، فهذا فيه نظر. (الشرح الممتع ١١٧/٧بتصرف).

والحق العلماء بحلق الشعر: إزالة الظفر من اليدين أو الرجلين. ونقل بعض العلماء الإجماع على أنه من المحظورات، فإن صح هذا الإجماع، فلا عذر في مخالفته، بل ليتبع، وإن لم يصح فإنه يبحث في تقليم الأظافر كما بحثنا في حلق بقية الشعر. (الشرح الممتع ١١٧/٧).

٥- استعمال الطيب في بدنه أو ثوبه: فَالْمُحْرِمُ - ذَكَرًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ - مَمْنُوعٌ مِنِ اسْتِعْمَال الطِّيبِ فِي إِزَارِهِ أَوْ رِدَائِهِ وَجَمِيعِ ثِيَابِهِ، وَفِرَاشِهِ وَنَعْلِهِ، حَتَّى لَوْ عَلِقَ بِنَعْلِهِ طِيبٌ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُبَادِرَ لِنَزْعِهِ، وَلاَ يَضَعُ عَلَيْهِ ثَوْبًا مَسَّهُ الْوَرْسُ أَوِ الزَّعْفَرَانُ أَوْ نَحْوُهُمَا مِنْ صِبْغٍ لَهُ طِيبٌ؛ لحديث ابن عباس قال: (وَقَصت رجل محرم ناقته فقتلته، فاتي به رسول الله، فقال: اغسلوه بماء وسدر، ولا تغطوا راسه ولا تمسوه بطيب) متفق عليه.

وَالأَصْل فِي حَظْرِ تَطْيِيبِ الثَّوْبِ وَلُبْسِهِ بَعْدَ الإِحْرَامِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لاَ تَلْبَسُوا شَيْئًا مِنَ الثِّيَابِ مَسَّهُ الزَّعْفَرَانُ وَلاَ الْوَرْسُ. [سنن ابن ماجه ٢٩٢٩] (الموسوعة الفقهية الكويتية ١٧٩/١٢ بتصرف).

٦- عقد النكاح (وليس فيه فدية)؛ لحديث عثمان بن عفان قال: قال رسول الله : (لا يَنكح المحرم ولا يُنكِح ولا يخطب). متفق عليه.

٧- الجماع في الفرج: إذا وقع الجماع قبل الطواف تفسد العمرة باتفاق أهل العلم.

٨- مقدمات الجماع كاللمس والتقبيل ونحوهما.

٩- قتل الصيد: وكذا الصيد ولو بدون قتل: لقوله تعالى: «وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً»، وقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم».

١٠- قطع شجر الحرم: وهذا محل اتفاق بين الفقهاء.

نسأل الله أن يتقبل منا ومنكم صالح الأعمال.

دراسات شرعية

أثر السياق في فهم النص

العرف وأثره في الفتوى

الحلقة (٥١)

إعداد/ متولي البراجيلي

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعدُ:

تكلمنا في الحلقة السابقة عن تغير الفتوى بتغير الأحوال، ورأينا أهمية هذا المبحث، مدللين على ذلك بالأمثلة.

ومما يرتبط بهذا المبحث مسألة: أثر العرف (العادة) في الفتوى.

أولا: هل العرف والعادة بمعنى واحد؟

في استعمال الفقهاء فإن العرف والعادة بمعنى واحد، وإن كان هناك من يفرِّق بينهما، فيجعل العادة أعم من العرف، ومنهم من يقول بالعكس. [انظر غمز عيون البصائر ٢٩٥/١].

ثانيا: تعريف العرف:

هو تكرر الأمر مرة بعد أخرى تكرارًا حتى يتقرر في النفوس، ويكون مقبولاً عندها.

ثالثا: أقسام العرف:

ينقسم العرف من حيث الموضوع إلى قسمين:

١- العرف اللفظي:

وهو أن يشيع بين الناس استعمال بعض الألفاظ والتراكيب في معانٍ معينة، مثل: البيت يُستعمل في غالب البلاد بمعنى جميع الدار، لكن في بعض بلاد المغرب العربي يُستعمل بمعنى الغرفة.

الولد: قصره على الذكر دون الأنثى، مع أنه في اللغة يشملهما.

والعرف اللفظي يتبادر إلى الذهن عند إطلاقة دون حاجة إلى قرينة، حتى سمُّوا استعمال اللفظ فيه حقيقة عرفية، لأن المعنى اللغوي صار مهجورًا لا يُقصد من اللفظ إلا بقرينة تدل على إرادته.

فمن قال لآخر اشترِ لي دابة، والمتعارف عندهم أن لفظ الدابة يطلق على الحمار فقط، فليس له أن يشتري فرسًا أو بغلاً، استنباطًا من أن لفظ الدابة يُطلق عند آخرين على ذات الأربع.

٢- العرف العملي:

وهو أن يعتاد الناس على بعض الأفعال في المعاملات، كمثل اعتياد بعض أصحاب الحِرَف تعطيل بعض أيام الأسبوع عن العمل، أو ارتداء زيٍّ معين، أو تعجيل جزء من المهر وتأجيل الباقي إلى ما بعد الطلاق أو الوفاة. وكتعارف الناس تقديم الأجرة قبل استيفاء

المنفعة في إجارة الأماكن شهريًا أو سنويًا.
واعتياد الناس عند بيع الأشياء الثقيلة أن تكون حمولتها إلى مكان المشتري على البائع، والعرف العملي عند الحنفية يعتبر مخصصًا إذا كان عامًا (أي عرفًا عامًا ليس خاصًا) خلافًا للجمهور، حيث لا يعتبرون العرف مخصصًا إلا إذا كان قوليًا.
مثال للعرف العملي المخصص:
لو وكل شخصٌ آخر بأن يشتري له خبزًا أو لحمًا، ومن عادة الناس في تلك البلدة أكل خبز خاص ولحم خاص، فليس للوكيل أن يشتري للموكل خبزًا من نوع آخر أو لحمًا غير ما اعتادوه، اعتمادًا على إطلاق الموكل؛ لأن العرف هنا يخصص به الإطلاق، فيسمى عرفًا عامًا مخصصًا. (الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، د. محمد صدقي، بتصرف . آل بورتو ٢٨٠/٢٨١).
- كما أن العرف ينقسم من حيث الشيوع والانتشار إلى قسمين أيضًا:
١- العرف العام: وهو العرف الذي يكون منتشرًا في جميع البلاد، كعقود الاستصناع (عقد الاستصناع: هو أن يتفق شخص مع آخر على صناعة شيء مقابل ثمن معين وأوصاف معينة) في كثير من الحاجات التي يحتاجها الناس من ملبس وبنيان ونحو ذلك.
٢- العرف الخاص: وهو اقتصاره على بلد معين، أو مكان معين، أو فئة من الناس.

رابعًا: حجية العمل بالعرف:

اختلف العلماء في حجية العمل بالعرف، فبعضهم يرى أنه دليل من أدلة الأحكام، وعليه قدماء علماء الحنفية والمالكية، وبعضهم يرى أن العرف لا يصلح دليلاً لإثبات حكم شرعي.
ويمكن التقريب بين الرأيين: بأن أصحاب الرأي الأول يعدون العرف دليلاً ، وذلك عند الاختلاف مع عدم وجود الدليل الشرعي في المسألة، وهذا لا ينكره أصحاب الرأي الثاني.
وأصحاب الرأي الثاني يرون عدم الاعتماد على العرف كدليل مستقل في بناء الأحكام بدون النظر إلى موافقة الدليل الشرعي أو مخالفته، وهذا لا ينكره أصحاب الرأي الأول. [الممتع في القواعد الفقهية بتصرف ص٢٧١، ٢٧٢].

خامسًا: ضوابط العمل بالعرف:

- ألا يعارض العرف نصٌ شرعي خاص، بحيث يؤدي العمل بالعرف إلى تعطيل النص، فهنا لا اعتبار للعرف، مثال ذلك: لو جرى العرف في بعض البلاد على المتاجرة في الخمر، فهذا عرف يُهدر وهو غير معتبر، لأنه عارض نصًا خاصًا في تحريم الخمر، وهو قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» [المائدة: ٩٠] .
مثال ثان: العمل بالربا: فلو جرى العرف في بعض البلاد على العمل بالربا، فالعرف هنا أيضًا لا اعتبار له؛ لأن النص الخاص عارضه، وهو قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» [البقرة: ٢٧٨] .
- أما لو عارض العرف نصٌ عام، فإن العرف هنا لا يُهمَل، لكن بشرط أن يكون العرف عامًا، وأن يكون قائمًا عند ورود النص، فيُعمل به وبالنص.
مثال ذلك: بيع الإنسان ما ليس عنده، فعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: نهاني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أبيع ما ليس عندي. (صحيح سنن الترمذي وغيره).
والعمل بالاستصناع كان عرفًا عامًا وقائمًا عند ورود النص، وهو من قبيل بيع الإنسان ما ليس عنده، لكن عمل به الصحابة رضي الله عنهم.
وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم استصنع خاتمًا، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: اصطنع رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتمًا، فقال: إنا قد اصطنعنا خاتمًا ونقشنا فيه نقشًا فلا ينقشن عليه أحد. [صحيح سنن ابن ماجه].
مع ملاحظة أن الشرع لو أقرّ عرفًا كان موجودًا، فهنا يتحول العرف إلى شرع، فلا يجوز تغييره ويصير حكمًا ثابتًا.
مثال ذلك: الطهارة من النجاسة، ستر العورة، ارتداء الحجاب لدى نساء المسلمين.
- أما إن كان العرف ليس حكمًا شرعيًا ولا مناطًا لحكم شرعي، فالناس يطورون حياتهم حسب مقتضيات الزمن.
ومن أمثلة ذلك: في زمن أبي حنيفة أفتى بأن صبغ الثوب بالأسود يعيبه؛ وذلك لأنه في زمنه كان الصبغ بالأسود يُعد عيبًا، لكن في زمن صاحبه تغير العرف، واستحسن الناس السواد، فأفتى صاحباه بأن الصبغ باللون الأسود لا يعد عيبًا.

مثال آخر: في فترة زمنية كان يُعد الأكل في الشوارع من خوارم المروءة، وكان لا يُقبل شهادة من أكل في الشارع؛ لأنه من قبيل الفسق الذي تُرَدّ به الشهادة، لكن تغيرت أعراف الناس بعد ذلك، فلم يعد الأكل في الشوارع من خوارم المروءة.
٢- أن يكون العرف مطردًا أو غالبًا، بمعنى أن يكون العمل بالعرف مستمرًا في جميع الحوادث لا يتخلف، أو مستمرًا في أكثر الحوادث، بحيث لا يتخلف العمل به إلا قليلاً، وهذا الشرط يُعبر عنه بقاعدة، وهي: «إنما تُعتبر العادة (العرف) إذا اطردت أو غلبت، أما النادر، وهو ما يقع قليلاً، فإنه لا يُلتفت إليه، فالشرع يبني أحكامه على ما يكثر وقوعه.
والإجماع منعقد على اعتبار الغلبة والعمل بالغالب، ومن ذلك: الاتفاق على العمل ببعض الأحوال التي تفيد الظن في الجملة؛ كخبر الواحد، والعمومات، والأقيسة، ونحوها، وذلك بسبب غلبة الصدق أو الصحة فيها.
كما أن اعتبار الشيء النادر ومراعاته وبناء الأحكام عليه، فيه مشقة وعسر.
مثال ذلك: وقت التكليف هو البلوغ، وذلك لظهور علامات البلوغ، فإذا لم تظهر علامات البلوغ، اعتبر الشرع أن بلوغ الإنسان خمس عشرة سنة هو سن التكليف، فالذي لا يبلغ عند هذه السن نادر، لذا لم يلتفت إليه الشارع وألحقه بالغالب.
ومن ذلك حياة المفقود بعد تسعين سنة من ولادته، فهذا قليل أو نادر، وموته بعد هذه السن هو الغالب، لذا يحكم بموته ويُقسم ماله بين ورثته.
٣- أن يكون العرف المراد تحكيمه قائمًا وموجودًا عند إنشاء التصرف، ويعبر عن هذا بقاعدة، وهي: «العرف الذي تحمل عليه الألفاظ إنما هو المقارن دون السابق والمتأخر».
بمعنى أن الألفاظ لا تفسَّر بالأعراف السابقة عليها- من زمن- أو المتأخرة عنها.
٤- أن لا يعارض العرفَ تصريحٌ بخلافه، فلو عارض العرف تصريح بخلافه، فإن العرف يُهْمَل ويؤخذ بالتصريح، ويعبَّر عن هذا بقاعدة هي: «لا عبرة للدلالة في مقابل التصريح». (انظر الممتع في القواعد الفقهية ٢٨٢/٢٨٣).

سادسًا : أدلة العمل بالعرف:

وقد دلَّ العمل بالعرف الكتاب والسنة والأثر :
أما الكتاب، فقوله تعالى: «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ» [الأعراف: ١٩٩]، قال ابن السمعاني: المراد ما يعرف الناس ويتعارفونه فيما بينهم .
وقال ابن عطية: معناه: كل ما عرفته النفوس مما لا تردّه الشريعة، وقال ابن مظفر في «الينبوع» العرف ما عرفه العقلاء بأنه حَسَن وأقرهم الشارع عليه . [التبحر شرح التحبير ٣٨٥٢/٨ علاء الدين المرداوي].
وقال ابن القيم: وقد أوجبت الشريعة الرجوع إليه (أي: العرف) عند الاختلاف في الدعاوي. [الطرق الحكمية ٧٩/١].
وقوله تعالى : «وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ» [البقرة: ٢٢٨].
قال ابن القيم : ودخل في قوله - وذكر الآية- جميع الحقوق التي للمرأة وعليها، وأن مردَّ ذلك إلى ما يتعارفه الناس بينهم ويجعلونه معروفًا لا منكرًا. [إعلام الموقعين ٢٥٢/١].
وقوله تعالى في كفارة اليمين : «فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ» [المائدة: ٨٩]، فأمر الله تعالى بإطعام المساكين من أوسط ما يطعم الناس أهليهم، والمرجع في ذلك إلى العرف، يُطعم كل قوم مما يطعمون منه أهليهم.
وكل ما تكرر من لفظ «المعروف» في القرآن نحو: «وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» [النساء: ١٩]، فالمراد ما يتعارفه الناس من مثل ذلك الأمر.
ومنها قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ» [النور: ٥٨].
فالأمر بالاستئذان في الأوقات التي جرت العادة فيها بالابتذال ووضع الثياب، فابتنى الحكم الشرعي على ما كانوا يعتادونه.
- وقد ورد لفظ المعروف في القرآن العظيم في سبعة وثلاثين موضعًا.
أما من السنة: فعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن هند زوجة أبي سفيان قالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني ما يكفيني وولدي، إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فقال: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف. [متفق عليه].
- وهو عادة الناس، وهذا يدل على أن العرف عمل جارٍ. قال ابن بطال: العرف عند الفقهاء أمر معمول

به، وهو كالشرط اللازم في البيوع وغيرها. [شرح صحيح البخاري ٦/٣٣٣].

وقال الحافظ ابن حجر: ومنه اعتماد العرف في الأمور التي لا تحديد فيها من قبل الشرع، وقال القرطبي: فيه اعتبار العرف في الشرعيات. [فتح الباري ٩/٥١٠].

- وعن حرام بن سعد: أن ناقة للبراء بن عازب رضي الله عنه دخلت حائطًا فافسدت فيه، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن على أهل الحوائط (البساتين وما شابهها) حفظها بالنهار، وأن على أهل المواشي حفظها بالليل. [رواه مالك وغيره وهو في السلسلة الصحيحة].

فقضى النبي صلى الله عليه وسلم في المسألة حسب أعراف الناس؛ إذ يكون أصحاب الحوائط بالنهار فيها، والمواشي تخرج بالنهار للرعي، فليحموا حيطانهم، أما الليل فلا أحد في المزارع، ولا رعي للماشية فليحفظها أهلها ويضمنون إذا أتلفت ليلاً، ولا يضمنون نهارًا، وهذا حسب العرف السائد بين الناس. [الممتع في القواعد الفقهية، د. مسلم بن ماجد الدوسري ص٢٧٤].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت في قول الله تعالى: «وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ» [النساء: ٦]: أُنزلت في والي اليتيم الذي يقوم عليه ويصلح في ماله، إن كان فقيرًا أكل منه بالمعروف. [متفق عليه].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وهو يسلفون في الثمار السنة والسنتين والثلاث، فقال: من سلف في شيء فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم. [متفق عليه].

فالرسول صلى الله عليه وسلم أجاز السلم (السلف) - وهو بيع معدوم، فالبائع لم يمتلك السلعة بعد، وذلك بناءً على العرف الذي كان موجودًا في المدينة، وأقرهم النبي صلى الله عليه وسلم بما ينظم كيفية البيع والشراء ليقطع التنازع.

وهذا من العرف العملي الذي أقره النبي صلى الله عليه وسلم، وصار جائزًا بإقراره.

أما الأثر: فما ورد عن ابن مسعود - موقوفًا- رضي الله عنه أنه قال: (ما رآه المسلمون حسنًا، فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون سيئًا فهو عند الله سيئ). [قال الحافظ الهيثمي في المجمع ١/١٧٨: رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير، ورجاله موثقون، وحسنه السخاوي في المقاصد الحسنة ح٩٥٩، وكذا الألباني في السلسلة الضعيفة، وقال بضعفه مرفوعًا، وتحسينه موقوفًا ح٥٣٣].

[فائدة: يحتج البعض بهذا الأثر على البدعة طالما رآها الناس حسنة، وهذا احتجاج باطل لأسباب منها:

١- أن الأثر موقوف فلا يجوز أن يُحتج به في معارضة النصوص القاطعة أن كل بدعة ضلالة.

٢- وعلى افتراض صلاحية الاحتجاج به؛ فإنه لا يعارض تلك النصوص، لأمور: الأول: أن المراد به إجماع الصحابة واتفاقهم على أمر، كما يدل عليه السياق، ويؤيده استدلال ابن مسعود رضي الله عنه على إجماع الصحابة على انتخاب أبي بكر خليفة.

٣- وليس المراد به قطعًا كل فرد من المسلمين، وإنما يقصد به العلماء المجتهدون. [انظر السلسلة الضعيفة ٢/١٧- ١٨].

وبوَّب البخاري في الصحيح: باب من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم في البيوع والإجارة والمكيال والوزن، وسننهم على نياتهم ومذاهبهم المشهورة:

وأورد تحته بعض الأدلة والآثار على العمل بالعرف، منها: واكترى (استاجر) الحسن (البصري) من عبد الله بن مرداس، حمارًا، فقال: بكم؟ قال بدانقين، فركبه، ثم جاء مرة أخرى، فال: الحمار الحمار، مرتين ولم يشارطه فبعث إليه بنصف درهم. [صحيح البخاري: ٣/٧٩].

قلت: ولم يسأله عن ثمن الإيجار في المرة الثانية، وعملاً بالعرف الذي تعارفا عليه في المرة الأولى، بل زاده على ما شارطه من باب الفضل.

قال ابن المنير: مقصوده (أي البخاري) بهذه الترجمة إثبات الاعتماد على العرف، وأنه يقضي به على ظواهر الألفاظ، ويرد إلى ما خالف الظاهر من العرف. [المتواري على أبواب البخاري ١/٢٤٦].

وقال الحافظ ابن حجر: «.. ولو أن رجلاً وكّل رجلاً في بيع سلعة، فباعها بغير النقد الذي عرف الناس، لم يَجُز، وكذا لو باع موزونًا أو مكيلاً بغير الكيل أو الوزن المعتاد.

وذكر القاضي حسين من الشافعية: أن الرجوع إلى العرف أحد القواعد الخمس التي يُبنى عليها الفقه. [فتح الباري ٤/٤٠٦].

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

وقفات مع حديث «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»

إعداد/ المستشار: أحمد السيد علي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد....

فمن أعظم أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم حديث أنس بن مالك (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) [متفق عليه]، فهو أصل عظيم في محبة المسلمين والنصح لهم، وإيثارهم ومعاملتهم كمعاملة النفس، ولو وعاه المسلمون وعملوا بما جاء به لاستقامت أمور الناس وقل الفساد المستشري في كل مناحي الحياة.

ولأهمية هذا الحديث، فقد بوب البخاري بابًا في كتاب الإيمان في صحيحه بعنوان (باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه) كما بوَّب مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان بابًا بعنوان (باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير)، وذكره النووي في كتابه الأربعين النووية برقم ثلاثة عشر.

ولنا مع هذا الحديث الوقفات الآتية:

الوقفة الأولى: معنى نفي الإيمان:

ورد نفي الإيمان في القرآن والسنة في مواضع عدة، ولم يات النفي على معنى واحد، بل على معنيين هما:

الأول: نفي أصل الإيمان لانتفاء بعض أركانه: بحيث يصير العبد كافرا بتركه لأصل الإيمان. ولكل مرتبة نظائر في الأدلة الشرعية والسياق والقرائن تدل عليها، فإن كان المنفي ركنًا حُمل النفي على أصل الدين، وإن كان المنفي واجبًا حُمل على كماله الواجب.

والنفي الوارد في الحديث الذي بين أيدينا نفي لكمال الإيمان الواجب، وليس نفيًا لأصل الإيمان كما ذكره العلامة ابن عثيمين رحمه الله في شرحه للأربعين النووية؛ حيث قال: قوله: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ» أي: لا يتم إيمان أحدنا، فالنفي هنا للكمال والتمام، وليس نفياً لأصل الإيمان.

فإن قال قائل: ما دليلكم على هذا التاويل الذي فيه صرف الكلام عن ظاهره؟

قلنا: دليلنا على هذا أن ذلك العمل لا يخرج به الإنسان من الإيمان، ولا يعتبر مرتدًا، وإنما هو من باب النصيحة، فيكون النفي هنا نفياً لكمال الإيمان.

فإن قال قائل: ألستم تنكرون على أهل التاويل تاويلهم؟

فالجواب: نحن لا ننكر على أهل التاويل تاويلهم، إنما ننكر على أهل التاويل تاويلهم الذي لا دليل عليه؛ لأنه إذا لم يكن عليه دليل صار تحريفاً وليس تاويلاً، أما التاويل الذي دلَّ عليه الدليل فإنه يعتبر من تفسير الكلام، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّيْنِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيْلَ» [أخرجه البخاري].

الوقفة الثانية: شمول الحكم للرجال والنساء:

فقوله صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم) وإن كان خطابًا للرجال، إلا أنه يشمل الرجال والنساء؛ لاشتراكهما في الحكم، فالمرأة لا تؤمن حتى تحب لأختها ما تحبه لنفسها، فعن عائشة قالت: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يجد البلل ولا يذكر احتلامًا، قال: يغتسل، وعن الرجل يرى أنه قد احتلم ولم

يجد بللاً، قال: لا غسل عليه، قالت أم سلمة: يا رسول الله، هل على المرأة ترى ذلك غسل؟ قال: نعم، إن النساء شقائق الرجال) [رواه الترمذي وصححه الألباني]، والمعنى والله أعلم: أنهن مثيلات الرجال، إلا ما استثناه الشارع؛ كالإرث والشهادة وغيرهما مما جاءت به الأدلة.

الوقفة الثالثة: شمول الحكم أن يكره له ما يكره لنفسه:

دل الحديث على أن من خصال الإيمان المستحبة أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، فيأتيه بما يحب أن يؤتى به، ويمنع عنه ما يحب أن يمنع عنه من الأذى، وينصح له، ويجتهد في أداء حقوقه واحترامه وتقديره، والنظر في مصالحه.

وأعظم ذلك إن رأى نقصًا في دين أخيه اجتهد في إصلاحه. قال بعض السلف: (أهل المحبة لله نظروا بنور الله، وعطفوا على أهل معاصي الله؛ مقتوا أعمالهم، وعطفوا عليهم ليزيلوهم بالمواعظ عن فعالهم، وأشفقوا على أبدانهم من النار).

فإذا لم يكره المسلم المعصية وأحبها لنفسه، فهل يجوز له أن يحبها لأخيه؟ فالجواب بالقطع لا؛ لأن الحديث ليس على إطلاقه، بل هو مقيّد بمحبة الخير فقط، فالمؤمن مأمور بأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «والذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيدِهِ لا يُؤْمِنُ أحدُكُم حتى يُحِبَّ لأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ منَ الخيرِ» [رواه النَسائيَ وصَححه الألباني].

الوقفة الرابعة: معنى الأخوة الواردة في الحديث:

تأتي الأخوة في القرآن والسنة على عدة معان هي:

الأول: أخوة الدين:

قال تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» (الحجرات:١٠)، وقوله صلى الله عليه وسلم: «المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره» [رواه مسلم].

الثاني: أخوة النسب البعيد:

فكل الناس مؤمنهم وكافرهم، أخوة في النسب العالي، فالكل من أب واحد وأم واحدة، قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا» [النساء: ١].

الثالث: أخوة النسب القريب: وهم:

١- بنو الأعيان: وهم الأخوة الأشقاء، من أب واحد وأم واحدة.

٢- بنو العلات: وهم الأخوة لأب واحد وأمهات شتى.

٣- بنو الأخياف: وهم الإخوة من أم واحدة وآباء شتى.

معنى الأخوة في الحديث: اختلف العلماء في ذلك على رأيين:

الأول: أنها أخوة الدين: دليله قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره»، كما أن الغالب أن الأُخوة إذا ذكرت مطلقة في النصوص فإنما يقصد بها أخوة الإيمان.

الثاني: أنها الأخوة بمعانيها الثلاث: فتشمل المسلم والكافر، فيكون المقصود من ذلك: أنه يحب لأخيه في النسب العالي البعيد الهداية والاستقامة، وأن تحصل الهداية للكافر كما حصلت الهداية له، فتكون الأخوة هنا أعم من أخوة الدين. ودليل ذلك ما رواه مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ) [صَحيح مسلم] فكلمةُ (النَاس) عامة تشمل المسلم وغيره.

الراجح: ما ذهب إليه أصحاب الرأي الثاني من أنها تشمل المعاني الثلاث؛ فلا يجوز للمسلم أن يعامل غير المسلمين من الذميين والمستأمنين والمعاهدين بغير ما يحب لنفسه، فلا يجوز له أن يقتلهم، ولا أن يزني بنسائهم، ولا أن يسرق أموالهم، ويحب لهم الهداية إلى الإسلام، ولكن لا يحب لهم ما يقويهم على شركهم وكفرهم من كثرة الأموال والأولاد والعتاد، وإن كان يحب ذلك لنفسه لاختلاف النيتين، فنيته من كثرتهم الاستعانة بهم على طاعة الله، بينما نية الكافر الاستعانة بهم على ما هو عليه من الكفر.

مقتضى الحديث أن المسلم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وهذا يكون في:

١- أمور الدنيا: فإن محبة الخير لأخيه كما يحب لنفسه مستحب؛ لأن الإيثار بها مستحب، وليس بواجب، فيحب لأخيه أن يكون ذا مال مثل ما يحب لنفسه، ويحب لأخيه أن يكون ذا وجاهة مثل ما له، فهذا مستحب يعني: لو فرّط فيه لم يكن كمال الإيمان الواجب منفياً عنه؛ لأن هذه الأفعال مستحبة.

٢- أمور الدين: أو الأمور التي يرغب فيها الشارع، وأمر بها أمر إيجاب أو أمر استحباب، وكذلك ما نهى عنه الشارع، فيحب لأخيه أن ينتهي عن المحرمات، ويحب لأخيه أن يأتي الواجبات، فإذا لم يحب له هذا، انتفى عنه كمال الإيمان الواجب.

ويتفرع عن هذا مسألة الإيثار، والإيثار منقسم إلى قسمين:

أ- إيثار بالقُرَبِ: أما الإيثار بالقرب فإنه مكروه؛ لأنه يخالف ما أمرنا به من المسابقة في الخيرات والمسارعة في أبواب الطاعات قال تعالى: «سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» [الحديد ٢١]، وقوله جل وعلا: «وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ» (آل عمران:١٣٣)، وقوله سبحانه: «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ» [البقرة ١٤٨].

فالمسارعة والمسابقة تقتضي أن كل باب من أبواب الخير يسارع إليه المسلم ويسبق أخاه إليه «وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ» [المطففين ٢٦]، ومن ثم يتضح خطأ من يقوم بتقديم غيره للوقوف مكانه في الصف الأول في الصلاة ورجوعه هو إلى الصف التالي، مخالفا قوله صلى الله عليه وسلم: «لو يعلمُ الناسُ ما في النداءِ والصفِ الأولِ، ثم لم يجدُوا إلا أن يستهموا عليه لاستَهَموا عليه» [رواه البخاري] - معنى لاستهموا عليه، أي: اقترعوا عليه.

ب - إيثار في أمور الدنيا: يعني في الطعام، في الملبس، في المركب، في التصدر في مجلس، أو ما أشبه ذلك؛ فهذا مستحب أن يؤثر أخاه في أمور الدنيا؛ لما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلَّم، فبعَثَ إلى نسائه فقُلْنَ: ما معَنا إلا الماءُ، فقال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلَّم: (مَن يضُمُّ أو يُضيِّفُ هذا؟). فقال رجلٌ من الأنصارِ: أنا، فانطلَقَ به إلى امرأتِه، فقال: أكرمي ضيفَ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلَّم، فقالَتْ: ما عندَنا إلا قوتَ صبياني، فقال: هيِّئي طعامَك، وأصبِحي سِراجَكِ، ونوِّمي صبيانَك إذا أرادوا عَشاءً. فهيَّأتْ طعامَها، وأصبَحَتْ سراجَها، ونوَّمتْ صبيانَها، ثم قامتْ كأنها تُصلِحُ سِراجَها فأطفأَتْه، فجعلا يُرِيانِه أنهما يأكلانِ، فباتا طاوِيَيْنِ، فلما أصبَح غدَا إلى رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلَّم فقال: (ضَحِكَ اللهُ الليلةَ، أو عَجِبَ، من فعالِكما). فأنزَلَ اللهُ: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» صحيح البخاري.

الوقفة الخامسة: الفضيلة الدينية والدنيوية:

إذا رأى المسلم غيره فاق عليه في فضيلة فتمنيه لها لنفسه له حالتان:

١- إن كانت تلك الفضيلة دينية: كالعلم والعبادة وغيرها استُحب له أن يتمنى ذلك كما تمنى النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه منزلة الشهادة. وقال صلى الله عليه وسلم: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطهُ على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها) [متفق عليه]، فتمني المرء لما أُعطِيَ أخوه من الفضائل لا ينافي محبة الخير والنصح له؛ لأنه من باب التنافس في طاعة الله والمسابقة بالخيرات.

٢- إن كانت تلك الفضيلة دنيوية: فلا يشرع له تمنيها ولا خير في ذلك؛ كما ذم الله عز وجل قوم قارون بقوله: «فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ

قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » [القصص ٧٩] وقال تعالى: «وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ» [النساء ٣٢]، فيُكره للعبد تمني ذلك؛ لأن الدنيا ليست مقصودة لذاتها، وقد تكون وبالا عليه، وقد يحصل مع ذلك نوع من الحسد. قال بعض السلف: (إذا رأيت من ينافسك في الدنيا فنافسه في الدين).

كما أن محبة الخير للغير لا تنافي أن يكره المرء أن يفوقه أحد في الجمال، فلا يذم ولا يأثم من كره ذلك. فقد أخرج أحمد من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وعنده مالك الرهاوي، فأدركته وهو يقول: يا رسول الله، قد قسم لي من الجمال ما ترى، فما أحب أحدًا من الناس فضلني بشراكين فما فوقهما، أليس ذلك هو من البغي؟ فقال: (لا، ليس ذلك بالبغي، ولكن البغي من بطر أو قال سفه الحق وغمص الناس) [والحديث صححه الشيخ أحمد شاكر].

أما إذا فعل ذلك من باب الكبر والفخر على الناس فهذا مذموم قد نهى عنه الشرع، وعليه تحمل آثار السلف، وهو مناف لمحبة الخير للمسلمين.

الوقفة السادسة: استحقاق الجنة لمن اتصف بهذه الفضيلة:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أحب أن يُزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وياتي إلى الناس الذي يُحب أن يؤتى إليه) رواه مسلم.

وعن يزيد القسري قال: قال لي رسول الله: «أتحب الجنة؟ قلت: نعم، قال: فأحب لأخيك ما تحب لنفسك) [رواه أحمد وحسنه الأرناءوط]، وذلك أنه لما كان المسلم محسنًا لإخوانه في الحياة الدنيا مشفقًا عليهم حريصًا على نفعهم، جازاه الله بالإحسان في الآخرة، وأدخله دار كرامته.

الوقفة السابعة: أمثلة من سلفنا الصالح:

كان السلف الصالح رحمهم الله يحبون لإخوانهم ما يحبون لأنفسهم، وينصحون لهم، وهذا يدل على تجردهم عن حظوظ أنفسهم، وصدقهم وكمال إخلاصهم، وحرصهم على إعلاء كلمة الله ونصرة دينه وخوفهم من العلو في الأرض.

فقد روى الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن فتى شاباً أتي النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: يَا رَسُول الله ائذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه، مه، فقال: «ادنه»، فدنا منه قريبا، قال: فجلس، قال - صلى الله عليه وسلم -: «أتحبه لأمك؟» قال: لا، والله جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم»، قال - صلى الله عليه وسلم -: «أفتحبه لابنتك؟» قال: لا، والله يا رسول الله جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم»، قال - صلى الله عليه وسلم -: «أفتحبه لأختك؟» قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم»، قال - صلى الله عليه وسلم -: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم»، قال - صلى الله عليه وسلم - قال: «أفتحبه لخالتك؟» قال: لا والله جعلني الله فداءك قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم» قال: فوضع يده عليه، وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه»، قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[والحديث صححه الألباني].

وروى الإمام مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر رضي الله عنه: «يا أبا ذرّ إني أراكَ ضعيفًا وإني أُحبُّ لك ما أُحبُّ لنفسي لا تَأَمَّرَنَّ على اثنيْنِ ولا تَوَلَّيَنَّ مالَ يتيم».

وقال ابن عباس: «إني لأمر على الآية من كتاب الله فأود أن الناس كلهم يعلمون منها ما أعلم»، وعن زياد بن الرَّبيع اليحمديَّ عن أبيه قال: «رأيت محمَّد بن واسع يبيع حمارا بسوق بلخ فقال له رجل: أترضاه لي؟ قال: لو رضيته لم أبعه» رواه ابن أبي الدنيا في كتاب العلم وكتاب الورع.

وكان عتبة الغلام إذا أراد أن يفطر يقول لبعض إخوانه المطلعين على أعماله أخرج لي ماء أو تمرات أفطر عليها ليكون لك مثل أجري».

نسأل الله أن يوفق المسلمين للعمل بهذا الحديث لتتحقق سعادتهم في الدنيا والآخرة.

اللهم آمين.

ضرورات في طريق الدعوة إلى الله تعالى

إعداد/ جمال عبد الرحمن

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه. وبعد:

فإن أشرف الفعل والقول؛ الدلالة والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وقد ذكر الله سبحانه ذلك في كتابه الجليل فقال: «وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ» [فصلت: ٣٣]، وإن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم كلها مواقف رائعة، وتضحيات عظيمة من أجل هذا الدين وإعلاء كلمات العزيز الحميد.

في بيعة العقبة الثانية:

قال ابن أبي إسحاق رحمه الله فيما رواه عن كعب بن مالك رضي الله عنه بعدما ذكر خروج القادمين من المدينة إلى مكة في الموسم، قال كعب: ثُمَّ خَرَجْنَا إِلَى الْحَجِّ، وَوَاعَدْنَا رَسُول الله الْعَقَبَةَ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّام التَّشْرِيق. قَالَ: فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنَ الْحَجِّ، وَكَانَتْ اللَّيْلَةُ الَّتِي وَاعَدْنَا رسول الله لَهَا، وَمَعَنَا عَبْدُ اللَّه بْنُ عَمْرو بْن حَرَام، أَبُو جَابِر، أَخْبَرْنَاهُ، وَكُنَّا نَكْتُمُ مَنْ مَعَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَنْ قَوْمِنَا أَمْرَنَا، فَكَلَّمْنَاهُ، وَقُلْنَا لَهُ: يَا أَبَا جَابِر، إِنَّكَ سَيِّدٌ من سادتنا، وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِنَا، وَإِنَّا نَرْغَبُ بِكَ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ حَطَبًا لِلنَّارِ غَدًا ثُمَّ دَعَوْنَاهُ إِلَى الإِسْلَام، وَأَخْبَرْنَاهُ بِمِيعَادِ رَسُول الله إِيَّانَا الْعَقَبَةَ. قَالَ: فَأَسْلَمَ، وَشَهِدَ مَعَنَا الْعَقَبَةَ- وَكَانَ نَقِيبًا- يعني: من رؤساء القوم، فَبِتْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قَوْمِنَا فِي رِحَالِنَا حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم. [تاريخ الطبري ٢/ ٣٦١].

وهنا يظهر أن للأسلوب البارع في الدعوة أثراً عظيماً في التأثير على المدعو، الذي يؤدي إلى سرعة استجابته، وهذا الذي يوصي به ربنا سبحانه كما في كتابه العزيز: «وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا» [البقرة: ٨٣]، وفي قوله تعالى: «ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ» [النحل: ١٢٥]، وقوله جل شأنه: «وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ» [آل عمران: ١٥٩].

وهؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم لما أرادوا دعوة عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر؛

نادَوْه بكنيته «يا أبا جابر» ، ويُعتبر النداء بالكنية نوع تكريم ورفع للقدر عند العرب.
ولهذا أثنى الصحابة رضوان الله عليهم على أبي جابر بأنه سيد من ساداتهم وشريف من أشرافهم، والثناء على الرجل الكبير الكريم يقلص الأنانية والتعصب من نفسه، ويجعله محباً ومتحفزاً لسماع مَن أمامه ولو كان خصماً؛ لأن الأسلوب اللين يسلل سخيمة الصدر، ويكسر حدة الطبع ، وهذا ما سلكوه مع والد جابر، فكان أن لان مع القول اللين، ومنعه كرمه أن يرد دعوة من أثنى عليه دون أن يحقق له ما يريد أو بعض ما يريد.
قال كعب رضي الله عنه: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم نتسلل تسلل القطا (طائر يشبه العصفور) مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلا، ومعنا امرأتان من نسائنا هما:نُسَيْبة بنت كعب (أم عمارة)، وأسماء بنت عمرو بن عدي، إحدى نساء بني سلمة، وهي أم منيع، فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه (محمد صلى الله عليه وسلم) ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج؛ إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه (أي دافعنا عنه) من قومنا، فهو في عز بين قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه؛ فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده، قال: فقلنا: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال:« أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم» فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: والله لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرَنا (أي نساءنا)، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة (السلاح) ورثناها كابراً عن كابر، فاعترض القول -والبراء يتكلم- أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله؛ إن بيننا وبين الرجال (اليهود) حبالاً (عهوداً) وإنا قاطعوها، فهل عسينا إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال:« بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمْتُم». [تاريخ الطبري ٢/ ٣٦٣].
وقوله صلى الله عليه وسلم: بل الدم الدم؛ يعني من طلب دمكم باعتداء فقد طلب دمي، وقوله: الهدم الهدم؛ يعني القبر والمنزل، أقبَر حيث تُقبرون.
ومما سبق نرى أن وجود امرأتين بين الرجال وهما منهم ولهم، يدل في هذا الجو الخطير المترقب على شجاعة هاتين المرأتين وتحملهما الأخطار في سبيل الله لتشهدا مشهداً عظيماً، طالما تاقت إليه نفوس المؤمنين الموحدين بسماع كلام من هو أعز عليهم من أنفسهم محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا حث ودفع للمرأة المسلمة التي ينبغي أن يكون لها دور ومشاركة في نصرة دينها وتبليغ رسالة ربها.
ثم وفي طلب رسولنا صلى الله عليه وسلم الحماية من البشر(الأنصار) وهو يعلم أن الله حاميه وهو القادر على نصره، قدوة لأتباعه، فهو يسير في دعوته في السلم والحرب في حدود ما يستطيعه سائر البشر، وذلك ليسهل لأتباعه بعد ذلك السير على منهجه، والاستفادة من سنته وطريقته، خاصة وقد انقطع الوحي ولم يبقَ إلا الاتباع وقياس النظائر على أشباهها.
خاصة وأن الدعاة المصلحين يواجهون أهل الباطل والإفساد، وقد يتعرضون للأذى على أيديهم، فهم بحاجة ماسة إلى أن يقوم أهل التقوى من إخوانهم بحمايتهم وكفالتهم وتأييدهم حتى ينجحوا في مهمتهم، وهذا يستوجب أن يكون المسلمون جسداً واحداً غير متفرقين ولا متباغضين ولا متشاحنين، لأن المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يسلمه، وبذلك تثمر جهود الإصلاح، وينتشر الخير من ورائهم.

وقول البراء بن معرور لرسول الله صلى الله عليه وسلم: نمنعك مما نمنع منه نساءنا، أعلى مستوى يمكن تصوره من النصر لدين الله ولرسول الإسلام؛ لأن الإنسان يبذل في حماية عرضه وأهله ما لا يبذله لنفسه، وصدقوا؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أحب إليهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم والناس أجمعين، وقد قاموا بحماية رسول الله صلى الله عليه وسلم خير حماية، ونصروه بما فيه الكفاية، حتى استحقوا عن جدارة لقب «الأنصار»، ونزل فيهم قول الله تعالى الخالد: «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [الحشر: ٩].

الحرية في أجمل معانيها :

واعتراض أبي الهيثم بن التيهان مقاطعاً البراء بن معرور وسائلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتأكد لنفسه أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن يظهره الله هل سيرجع إلى قومه ويتركه؟ كان في هذا الاعتراض نموذجا فذاً من الحرية العالية، والشجاعة الأدبية الراقية التي رفع الله تعالى المسلمين إليها بالإسلام؛ حيث عبر أبو الهيثم عما في نفسه بكامل حريته مع أنه رضي الله عنه كان يجزم بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يسلك معهم إلا ما فيه خيرهم، فكان السؤال من قبيل «بلى ولكن ليطمئن قلبي».

وطن المسلم حيث ينصر دينه

وفي نفس الوقت برز الموقف الجليل من النبي عليه الصلاة والسلام الذي أعلن فيه أن موطن المسلم الحقيقي ليس شرطاً أن يكون الذي ولد فيه وعاش مع آبائه فيه، وإنما موطنه الحقيقي هو الذي يستطيع أن يعبد ربه فيه بحرية، وأن يطبق فيه الإسلام كاملاً، ومن هذا المنطلق كانت الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام. ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب مكة حباً عظيماً، وسجل هذا الحب بقوله:« ما أطيبك من بلد وأحبك إلي ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك» [رواه الترمذي ٣٩٢٦ وصححه الألباني].
ولكن حبه صلى الله عليه وسلم لها لا يعني البقاء فيها والطغيان يحكمها، ويحول بينه وبين حرية الدعوة وتطبيق الإسلام كاملاً، ولذلك سعي في وقت مبكر في عرض نفسه على القبائل؛ عَلَّهُ يجد قبيلة تأخذه معها وتنصره حتى يبلغ رسالة ربه ويطبق شريعته، ولهذا كان يسعى بين القبائل مناشداً، كما قال جَابِرُ بْنُ عَبْدِ الله: إِنَّ رَسُولَ الله لَبِثَ عَشْرَ سِنِينَ يَتَّبِعُ الْحَاجَّ فِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْمَوْسِمِ وَبِمَجَنَّةَ وَبِعُكَاظَ، وَبِمَنَازِلِهِمْ بِمِنًى يَقُولُ:« مَنْ يُؤْوِينِي، مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَاتِ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ؟ »، فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَنْصُرُهُ وَيُؤْوِيهِ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ يَرْحَلُ مِنْ مُضَرَ، أَوْ مِنَ الْيَمَنِ، إِلَى ذِي رَحِمِهِ، فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ، فَيَقُولُونَ: احْذَرْ غُلَامَ قُرَيْشٍ لَا يَفْتِنُكَ، وَيَمْشِي بَيْنَ رِحَالِهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ، حَتَّى بَعَثَنَا الله عَزَّ وَجَلَّ لَهُ مِنْ يَثْرِبَ، فَيَأْتِيهِ الرَّجُلُ فَيُؤْمِنُ بِهِ، فَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ، فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلَامِهِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ يَثْرِبَ إِلَّا فِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ». [مسند أحمد ٢٣/ ٢٢، وقال الأرناءوط: حديث صحيح وهذا إسناد حسن].
وهذا يوجب على الدعاة الذين يدعون إلى الله على بصيرة خلف هذا الإمام القائد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن يتحركوا بين الناس بدعوتهم، وأن يتعرفوا على الناس ويعرِّفوا الناس بدعوتهم، ويرى الناس فيهم أخلاق نبيهم، وصبره وتحمله من أجل الدعوة، لا أن يجلس الدعاة في المساجد فقط يعيدون ويراجعون قواعد الخلاف، ونقد المخالفين، ما يجعل الناس تجهلهم، وربما لم يروهم إلا فيما ينفر عن دعوة الإسلام النقية وسلوك أهله القويم.

أهمية النقباء :

ولما تمت البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة أكدها باختيار مجموعة من هؤلاء المبايعين يكونون قادة لقومهم، يتابعونهم ويتفقدون أحوالهم وما يعترضهم من أسئلة أو شبهات، ليستمروا في العمل بما بايعوا عليه، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم للمبايعين:« أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم

اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس». [تاريخ الطبري٢/ ٣٦٣]
وقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم هذه المهمة قدراً كبيراً من العناية حينما شبَّه النقباء بحواريي عيسى عليه السلام فقال:» أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى، وأنا كفيل على قومي» قالُوا: نَعَمْ. [تاريخ الطبري ٢/ ٣٦٣].
وبهذا أشعرهم النبي صلى الله عليه وسلم بانهم حلقة في تلك السلسلة الذهبية التي كون حلقاتها أنبياء الله ورسله، بل زاد النبي الأمر أهمية حينما اعتبر نفسه كفيلاً على قومه كما هم كفلاء على قومهم، وفي ذلك رفعٌ لمعنويات هؤلاء النقباء الذين شعروا أنهم شركاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في أداء هذه الأمانة وحملها وتبليغها والحفاظ عليها وعلى أهلها، ثم يتضح من أمر تحديد النقباء على أقوامهم تحديد المسئولية والمسئولين، لأن بقاء أمر المسئولين سابحاً وعائماً وشائعاً بين الجميع يؤدي إلى انفراط العقد، بسبب الشعور العام لدى الجميع بانه مفرغ من المسئولية وما ينتج عنه من شيوع التواكل بينهم، بحيث يعتمد كل واحد منهم على أن الآخرين قاموا بما هو مطلوب، وفي الحقيقة أن الجميع لم يقوموا بشيء. هذه النتيجة السلبية تختفي تماماً عند تحديد النقباء وتوزيع المسؤوليات في أفراد معدودين يسهل بعد ذلك حصر الاستيفاء منهم وقد شعر كل واحد منهم بمسئوليته.

تجرد الصحابة لإرادة الآخرة:

الصحابة رضوان الله عليهم تجردوا لإرادة الآخرة، ولم يعتبروا الدنيا إلا مجرد عرض يوصل إلى الآخرة، وهذا كان سر نجاحهم وإنجازهم في الدنيا وحيازتهم الانتصارات الباهرة. انظر إليهم في هذا النص وهم يضحون بكل غالٍ ونفيس مستشرفين في ذلك ما عند الله العلي الأعلى.
قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ: أَنَّ الْقَوْمَ لَمَّا اجْتَمَعُوا لِبَيْعَةِ رَسُولِ اللَّهِ r، قَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ: يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ، هَلْ تَدْرُونَ عَلَى مَا تُبَايِعُونَ هَذَا الرَّجُلَ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: إنَّكُمْ تُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ مِنَ النَّاسِ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ إذَا نَهِكَتْ أَمْوَالَكُمْ مُصِيبَةٌ، وَأَشْرَافَكُمْ قَتْلٌ أَسْلَمْتُمُوهُ، فَمِنَ الْآنَ، فَهُوَ وَاَللَّهِ خِزْيُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إنْ فَعَلْتُمْ، وَإِنْ كُنْتُمْ ترون انكم وافون له بما دعوتموه إلَيْهِ عَلَى نَهْكَةِ [نقص] الْأَمْوَالِ، وَقَتْلِ الْأَشْرَافِ، فَخُذُوهُ، فَهُوَ وَاَللَّهِ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. قَالُوا: فَإِنَّا نَأْخُذُهُ عَلَى مُصِيبَةِ الْأَمْوَالِ، وَقَتْلِ الْأَشْرَافِ، فَمَا لَنَا بِذَلِكَ يَا رسول الله، إن نَحن وَفَيْنَا؟ قَالَ: «الْجَنَّةُ». قَالُوا: ابْسُطْ يَدَكَ. فَبَسَطَ يَدَهُ، فَبَايَعُوهُ. [المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٣/ ٣٧].
ومبايعة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على قتال الأحمر والأسود وإن قُتل أشرافهم في ذلك ونهبت أموالهم دليل على قوة الإيمان والتجرد من الدنيا وطلب ما عند الله في الآخرة وهي الجنة، وهذا وعي الصحابة بما يتطلبه هذا الدين وهم رضي الله عنهم مع حداثة عهدهم بالإسلام يخططون لما يتوقعونه مستقبلاً، بينما تجد كثيراً من المسلمين-هداهم الله- لا يفكرون أبدا في جهاد أعداء الله، ولا يحسبون حسابا لإمكانية غزو الأعداء بلادهم، والسبب في ذلك أنهم ورثوا الإسلام بفهم ناقص قاصر فظلوا بقية حياتهم على هذا القصور في الفهم والوعي، وقد قال أبو هُرَيْرَةَ رضى الله عنه: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ». [صحيح مسلم ٣/ ١٥١٧].

الاتباع والتزام الحق:

ثم إن القوم بعد بيعتهم وقضاء مناسكهم عادوا إلى المدينة، وإن كان حدث قبل عودة بعضهم حوادث هي من البلاء الذي كتبه الله تعالى على أهل الإيمان.
ونبين هذا في العدد القادم إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

قصة جبل قاف (ق)

الحلقة (١٥٦)

إعداد/ علي حشيش

نواصل في هذا التحذير تقديم البحوث الحديثية للقارئ الكريم حتى يقف على حقيقة هذه القصة التي اشتهرت، وانتشرت في كتب التفسير، خاصة وأن هذه القصة جاءت في تفسير الآية الأولى من سورة (ق) في قول الله تعالى : «قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ» [ق: ١] ، وجاء التفسير بالمأثور منسوبًا إلى ابن عباس رضي الله عنهما ، وهذا أمر خطير؛ لأنه لم يكن متعلقا ببيان لغة أو شرح غريب، ولكنه متعلق بخلق الأرض والجبال والبحار، وهي من الأمور التي لا مجال للاجتهاد فيها، حيث قال الله عز وجل : «مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا» [الكهف: ٥١]، وإلى القارئ الكريم التخريج والتحقيق لهذه القصة :

أولاً: متن القصة :

رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل : «قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ» [ق: ١] قال: أنبت الله عز وجل من الياقوتة جبلاً، فأحاط بالأرضين السبع على مثل خلق الياقوتة في حسنها، وخضرتها، وصفائها، فصارت الأرضون السبع في ذلك الجبل كالأصبع في الخاتم، وارتفع بإذن الله عز وجل في الجو حتى لم يبق بينه وبين السماء إلا ثمانون فرسخًا وما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام للراكب المسرع، ثم أنبت الله عز وجل هذه الجبال التي على وجه الأرض من برها وبحرها من ذلك الجبل، فهي عروق ذلك الجبل متشعبة في الأرضين السبع، فذلك قوله تعالى: «وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا» [النبأ: ٧] ، وقوله تعالى: «وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ» [المرسلات: ٢٧]، فالرواسي الثابتات الأصول إلى الأرض السابعة، والشامخات العاليات الفروع فوق هذه الأرض، قال: ولذلك الجبل رأس كرأس الرجل، ووجه كوجه الرجل، وقلب على قلوب الملائكة في المعرفة لله سبحانه وتعالى والخشية والطاعة له، فذلك قوله جل ذكره في « ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » [ق: ١]، فـ «ق» ذلك الجبل وهو اسمه...» اهـ. ثم أخذ بعد ذلك يصف هذا الجبل جبل «ق» في أكثر من ثلاثين سطرًا.

ثانيا: التخريج:

أخرج الخبر الذي جاءت به هذه القصة الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حَيَّان المعروف بابي الشيخ الأصبهاني (٢٧٤- ٣٦٩هـ) في كتابه «العظمة» ح(٩٩٠) قال: أخبرنا أبو عبد الرحمن بن عبد الله الأملي، حدثنا محمد بن الفضل الطبري، عن خلف بن ميمون، حدثنا عمر بن صُبْح، عن مقاتل بن حيان، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل: « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » [ق: ١]، أنبت الله عز وجل من الياقوتة جبلًا...» القصة.

ثالثا: التحقيق

هذا الخبر موضوع وهو الكذب المختلق المصنوع، وعلته عمر بن صُبْح:

١- قال الإمام الحافظ محمد بن حبان بن أحمد أبي حاتم البستي المتوفى سنة (٣٥٤هـ) في كتابه «المجروحين» (٢/٨٨): «عمر بن صبح عن قتادة، ومقاتل بن حيان، روى عنه العراقيون كان ممن يضع الحديث على الثقات، لا يحل كتابة حديثه إلا على جهة التعجب لأهل الصناعة فقط». اهـ.

٢- قال الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى سنة (٧٤٨هـ) في كتابه «الميزان» (٣/٢٠٦/٦١٤٧): «عمر بن صبيح الخراساني، أبو نعيم، عن قتادة ويزيد الرقاشي وعنه عيسى بن موسى غنجار، وجماعة من المجاهيل ليس بثقة ولا مأمون، قال الأزدي: كذاب، وقال الدارقطني وغيره: متروك». اهـ. ونقل قول الإمام ابن حبان: «كان ممن يضع الحديث» وأقره.

قلت: من هذا التحقيق يتبين أن الخبر الذي جاءت به القصة موضوع، والقصة واهية.

رابعا: طريق آخر لقصة جبل «ق»:

قال أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزابادي المتوفى سنة (٨١٧هـ) في كتابه «تنوير المقباس من تفسير ابن عباس» ص(٣٢٤) أخبرنا عبد الله بن المأمور الهروي، قال: أخبرنا أبي، قال: أخبرنا أبو عبيد الله محمود بن محمد الرازي، قال: أخبرنا عمار بن عبد المجيد الهروي قال: أخبرنا علي بن إسحاق السمرقندي، عن محمد بن مروان عن الكلبي، عن أبي صالح عن ابن عباس قال في تفسير قوله تعالى: «ق» يقول هو جبل أخضر محدق بالدنيا، وخضرة السماء منه، أقسم الله به «والقرآن الكريم» وأقسم بالقرآن الكريم». اهـ.

تحقيق هذا الطريق

قلت: وهذا الخبر الذي جاء فيه جبل ق خبر لا يصح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعلة هذا الخبر محمد بن السائب الكلبي.

١- قال الإمام الذهبي في «الميزان» (٣/٥٥٦/٧٥٧٤) محمد بن السائب الكلبي أبو النصر الكوفي المفسر النسابة الإخباري، قال الإمام الجرجاني وغيره: «كذاب». اهـ.

٢- قال الإمام البخاري في «التاريخ الكبير» (١/١٠١/٢٨٣): محمد بن السائب أبو النضر الكلبي تركه يحيى بن سعيد الحراني، وابن مهدي، وقال لنا عليّ: حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان قال: قال لي الكلبي، قال لي أبو صالح: كل شيء حدثتك فهو كذب، وروى محمد بن إسحاق عن أبي النضر وهو الكلبي. اهـ.

٣- وأخرج ابن عدي في «الكامل» (٦/١١٤) (٥/١٦٢٦) قال: سمعت محمد بن سعد الحراني يقول: سمعت عبد الحميد بن هشام يقول: سمعت عبد الجبار بن محمد الخطابي يقول: سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: سمعت سفيان الثوري يقول: قال الكلبي: «كل شيء احدث عن أبي صالح فهو كذب». اهـ.

وقال ابن عدي سمعت ابن حماد يقول: قال السعدي: محمد بن السائب الكلبي كذاب ساقط.

٤- وقال الإمام النسائي في «الضعفاء والمتروكين» (٥١٤): محمد بن السائب أبو النضر الكلبي: متروك الحديث، كوفي». اهـ.

٥- وأورده الإمام الحافظ ابن حبان في «المجروحين» (٢/٢٥٣) قال: محمد بن السائب الكلبي كنيته أبو النضر من أهل الكوفة، ثم أخرج بسنده عن أحمد بن هارون يقول: سألت أحمد بن حنبل عن تفسير الكلبي فقال: كذب، قلت: يحل النظر فيه؟ قال: لا.

ثم قال الإمام ابن حبان: الكلبي هذا مذهبه في الدين ووضوح الكذب فيه أظهر من أن يحتاج إلى الإغراق في وصفه.

يروي عن أبي صالح في «التفسير» عن ابن عباس، وأبو صالح لم ير ابن عباس ولا سمع منه شيئا، ولا سمع الكلبي من أبي صالح إلا الحرف بعد الحرف لا يحل ذكره في الكتب، فكيف الاحتجاج به. اهـ.

قلت: فهذا الطريق كما بينا فيه طعن في الراوي، وهو محمد بن السائب الكلبي الكذاب، وفيه انقطاع حيث إن أبا صالح لم ير ابن عباس، ولا سمع منه كما بينا آنفا ، وهذا الضعف الشديد في هذا الطريق لا يزيد الطريق الأول إلا وهنًا على وهن، ويصبح هذا الطريق ساقطا بهذا الكذب الساقط كما بيّنه ابن عدي آنفًا.

قلت: وبهذا يكون الصحابي الجليل ابن عباس رضي الله عنهما بريئًا من هذه القصة المنسوبة إليه في «تفسير قوله عز وجل: «ق والقرآن المجيد»» قصة جبل ق.

خامسا: بيان الحافظ ابن كثير ببطلان قصة جبل ق

قال الإمام الحافظ ابن كثير في صدر تفسيره لسورة ق كما في «تفسيره» (٤/٢٢٢): «وقد رُوِيَ عن بعض السلف أنهم قالوا: «ق» جبل مُحيط بجميع الأرض يقال له جبل قاف، وكان هذا والله أعلم من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يُصدق ولا يُكذب، وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم يلبّسون به على الناس أمر دينهم، كما افترى في هذه الأمة مع جلالة قدر علمائها وحفاظها، وأئمتها أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وما بالعهد من قدم، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى وقلة الحُفّاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمور، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته، وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: «وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»، فيما قد يجوّزه العقل، فأما فيما تحيله العقول ويحكم فيه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه فليس من هذا القبيل، والله أعلم.

وقد حذر كثير من السلف من المفسرين، وكذلك طائفة كثيرة من الخلف من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن الكريم، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، ولله الحمد والمنة، حتى إن الإمام أبا محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي -رحمة الله عليه- أورد هنا أثرًا غريبًا لا يصح سنده عن ابن عباس رضي الله عنهما فقال : «حدثنا أبي قال حُدثت عن محمد بن إسماعيل المخزومي حدثنا ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خلق الله تبارك وتعالى من وراء هذه الأرض بحرًا محيطا بها، ثم خلق من وراء ذلك البحر جبلاً يقال له قاف، سماء الدنيا مرفوعة عليه، ثم خلق الله تعالى من وراء ذلك الجبل أرضا مثل تلك الأرض سبع مرات، ثم خلق من وراء ذلك بحرًا محيطا بها، ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له قاف السماء الثانية مرفوعة عليه حتى عدّ سبع أرضين، وسبعة أبحر، وسبعة أجبل وسبع سماوات قال وذلك قوله تعالى : «وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ » [لقمان: ٢٧] ، فإسناد هذا الأثر فيه انقطاع». اهـ.

قلت: لذلك قبل أن يذكر الحافظ ابن كثير هذا الأثر قدّم له بقوله: حتى إن الإمام أبا محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي -رحمة الله عليه- أورد هاهنا أثرًا غريبًا لا يصح سنده. اهـ.

قلت: وعلة هذا الأثر، والتي جعلته غريبًا لا يصح سنده، مع ما فيه من علة الانقطاع هو: ليث بن أبي سُليم :

١- ذكره ابن حبان في «المجروحين» (١/٢٣١) قال : ليث بن أبي سليم بن زنيم الليثي أصله من أبناء فارس، واسم أبي سليم أنس كان مولده بالكوفة، وكان معلمًا بها، يروي عن مجاهد وطاوس، روى عنه أهل الكوفة وكان من العُبّاد، ولكن اختلط في آخر عمره حتى كان لا يدري ما يحدّث به، فكان يقلب الأسانيد، ويرفع المراسيل، ويأتي عن الثقات بما ليس من أحاديثهم، كل ذلك كان منه في اختلاطه تركه يحيى القطان، وابن مهدي، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين،

ثم أخرج بسنده عن جعفر بن أبان الحافظ قال: سألت أحمد بن حنبل عن ليث بن أبي سليم فقال: ضعيف الحديث جدًا كثير الخطأ.

٢- وذكره الذهبي في «الميزان» (٦٩٩٧/٤٢٠/٣) قال: الليث بن أبي سليم روى له مسلم مقرونًا.

قلت: وقول الإمام الذهبي : «مقرونًا» لا يعرف أهميته إلا أهل هذه الصنعة، وهذا معناه أنه روى له مسلم استشهادًا ولم يروِ له احتجاجًا؛ فهو لا يُحتج به لضعفه.

ولسبب الجهل بهذه القاعدة كم زلت أقدام وضلت أفهام!! حيث إنه بمجرد رؤية اسم الراوي في صحيح مسلم يقول : صحيح على شرط مسلم، أو يقول: صحيح؛ رجاله رجال الصحيح، وهو بعيد كل البعد لأنه لم يعرف الطريقة التي روى بها مسلم للراوي في صحيحه.

وهذا مثال بَيِّن في الراوي ليث بن أبي سليم الذي ترك أئمة الجرح والتعديل حديثه لضعفه الشديد وكثرة خطئه كما بينا آنفًا.

٣- قال الحافظ ابن حجر في «التقريب» (٥٦٧٦/١٠٩/٢): «الليث بن أبي سُليم بن زنيم اختُلط جدًا ولم يتميز حديثه، فتُرِك». اهـ.

قلت: بهذا يتبين أن قصة جبل قاف من هذا الطريق الثالث الذي أخرجه الإمام ابن أبي حاتم في تفسيره، وبين الإمام الحافظ ابن كثير أن هذا الأثر غريب ولا يصح سنده، فهو أيضا طريق تالف لا يزيد القصة إلا وهنًا على وهن.

قلت: ولقد أخرج هذا الخبر الذي جاءت به قصة جبل قاف الإمام الحافظ ابن أبي حاتم في «تفسيره» المسمى «تفسيره القرآن العظيم مسندًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين» (٣٣٠٧/١٠) ح(١٨٦٢٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما في صدر تفسيره سورة ق.

قلت: والقاعدة عند علماء الصناعة «من أسند فقد أحال» وأصحاب الصناعة الحديثية لم يكتفوا بذكر المتن مسندًا فينشطون ليبينوا ما فيه من قبول أو رد.

كما فعل الحافظ ابن كثير عندما نقل عن الإمام الحافظ ابن أبي حاتم هذا الأثر الذي جاءت به قصة جبل قاف؛ حيث قال: «حتى إن الإمام أبا محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي رحمة الله عليه أورد هنا أثرًا غريبًا لا يصح سنده عن ابن عباس رضي الله عنهما، ثم ذكره كما بينا آنفا».

سادسًا: براءة ابن عباس رضي الله عنهما من مثل هذه الخرافات والإسرائيليات

مما ذكرناه آنفًا يتبين براءة الإمام البحر ابن عباس من هذه القصة الواهية قصة جبل قاف التي تفسر قول الله تعالى : «قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ» [ق: ١]، كما بينا براءته أيضا من قصة الحوت المسمى بهموت والذي يحمل الأرض على ظهره؛ حيث جعلوه تفسيرًا لقول الله تعالى : «نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ» [القلم: ١] هو الحوت ، وبينا أن القصة نُسبت كذبًا إلى الإمام البحر ابن عباس، وذلك تحت هذه السلسلة «تحذير الداعية» (١٥٤) في مجلة التوحيد حفظها الله، وقمنا بالرد على افتراءات المستشرق اليهودي جولد زيهر الذي يتهم الإمام ابن عباس رضي الله عنهما بالأخذ عن أهل الكتاب في بحث علمي دقيق في مائة وسبعين سطرًا بينا فيه جهل هذا المستشرق المركب؛ حيث إنه يجهل هو وأمثاله السُّنة ويجهل أنه جاهل، وليرجع هو وأمثاله إلى صحيح الإمام البخاري فقد بوّب الإمام البخاري في «صحيحه» بابًا في كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة» (٢٥) باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تسالوا أهل الكتاب عن شيء» (ح٧٣٦٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كيف تسالون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدث تقرءونه محضًا لم يُشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدّلوا كتاب الله وغيّروه، وكتبوا بأيدهم الكتاب، وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسالتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسالكم عن الذي أنزل عليكم.

هذا ما وفقني الله إليه وهو وحده من وراء القصد.

المذهب الوسطي لأبي الحسن الأشعري في توحيد الصفات

الحلقة الحادية عشرة

مجانبة الدارقطني والأصبهاني والصابوني والبغوي وابن كثير ضمن مئات ممن ذكرهم صاحب (جمع الجيوش والدساكر على ابن عساكر) لما كان عليه متأخري الأشاعرة

إعداد/ أ.د. محمد عبد العليم الدسوقي
الأستاذ بجامعة الأزهر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.. وبعد:

ففي سابقة جديرة بالإشارة وحَرِية بالاعتبار، ذكر ابن المِبْرَد يوسف بن حسن بن عبد الهادي (ت ٩٠٩) في كتابه (جمع الجيوش والدساكر على ابن عساكر) ما يزيد على أربعمائة عالم بدءًا من عصر الأشعري وحتى زمنه ما بين محدث وفقيه وعابد وإمام، كلهم قد جانبوا ما كان عليه الأشاعرة من تأويلات لا مستند لها من كتاب ولا من سنة ولا إجماع، بل وثبت عن أكثرهم ذم ما كان عليه أولئك الأشاعرة.. قال ابن المِبْرَد: «ولو ذهبنا نستقصي ونتتبع كل من جانبهم من يومهم وإلى الآن لزادوا على عشرة آلاف نفس». [ص٢٨١٠].

والعجب كل العجب أن تُترك معتقدات كل هؤلاء الذين أربى عددهم عن العشرة آلاف عالم حتى زمن ابن المِبرد فقط، ويُتمسك بما هو دونها من معتقدات خرجت في مجموعها عما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وخير القرون من بعده من صحابته وتابعيهم وتابعي تابعيهم.. ويجرنا الحديث عما بدأناه هنا، إلى التركيز على من شكّك البعض في أمر مجانبته لما كان عليه أشاعرة زمانهم، ونذكر من هؤلاء الأعلام على سبيل المثال:

١- الإمام الحافظ الدارقطني (ت ٣٨٥): وهو أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد المقرئ المحدث البغدادي إمام الجهابذة.. فقد ضمه بعض المعاصرين إلى ركب الأشاعرة استكثارًا للأتباع وتشبعًا بما لم يعطوا، بينا ذكر المحقق ابن المِبْرَد في كتابه (جمع الجيوش والدساكر) أنه كان ممن جانب الأشاعرة، حيث قال ص ٢٠٨: «ومنهم: الإمام أبو الحسن الدارقطني، كان مجانبًا لهم»، قال: «وله كلام في ذمهم».

ومما هو معلوم، أن للدارقطني في إثبات الصفات ثلاثة كتب هي: (الصفات) و(حديث النزول) و(الرؤية)، وهي في جملتها تعد عمدة في إثبات الصفات والتدليل عليها.. فكتابه (الصفات) ألفه في إثبات صفات الله تعالى التي كان يتاولها المعطلة من الجهمية والمعتزلة والشيعة والكلابية والأشعرية، فعقد بابًا لإثبات القدم لله عز وجل، وبابًا لإثبات اليدين، وبابًا لإثبات الضحك، وبابًا لإثبات الأصابع، وبابًا فيما جاء في الكرسي، وبابًا فيما جاء في صورة الرحمن، وبابًا فيما جاء

في حَثْيات الرب عز وجل، وباباً فيما جاء في يمين الله عز وجل، وبابا فيما جاء في كف الرحمن.. ثم أعقب هذه الأبواب بباب في بيان منهج السلف في هذه الصفات، وهو: (إمرارها على ظاهرها، وعدم التعرض لها بتاويل ولا تشبيه)، ونقل في ذلك كثيرا من نصوص السلف [وقد قام بتحقيقه د. الفقيهي، ونشرته دار إحياء السنة بمصر سنة ١٤٠٣].

وأما كتاب (أحاديث النزول) فقد ركز فيه على صفة النزول لله تعالى، وأثبت أحاديثها وأنها على حقيقتها من غير تشبيه ولا تحريفٍ ولا تاويل، وأنه نزول يليق بجلاله فليس نزول مَلَك ولا نزول أمر ونحو ذلك مما يتاوله الأشاعرة وجميع المعطلة.. وكذا فعل في كتابه (الرؤية)، حيث قرر فيه معتقد السلف في أن الله تعالى يراه المؤمنون في العرصات وبعد دخول الجنة، وجمع فيها الأحاديث وكلام الصحابة والتابعين والأئمة في إثبات ذلك.

وكان الإمام الذهبي قد أشاد في العلو ص ١٧١ بالدارقطني وبكتبه وجهوده ومذهبه، قائلا: «كان العلامة الحافظ أبو الحسن علي بن عمر نادرة العصر وفرد الجهابذة، ختم به هذا الشان، فمما صنف: (كتاب الرؤية)، و(كتاب الصفات)، وكان إليه المنتهى في السُنة ومذاهب السلف».. كما نقل عنه في سير أعلام النبلاء ١٦/ ٤٥٧ قوله: «ما شيء أبغض إليّ من علم الكلام».. قال الذهبي معلقا: «لم يَدخل الرجل أبدا في علم الكلام ولا الجدال ولا خاض في ذلك، بل كان سلفيا، وقد سمع هذا القول منه أبو عبد الرحمن السلمي»ا.هـ.

٢- الحافظ أبو نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠): صاحب (حلية الأولياء).. «كان - على ما ذكر الذهبي في العلو ص ١٧٦ - حافظ العجم في زمانه بلا نزاع، جمع بين علة الرواية وتحقيق الدراية».. ومع ذا عده البعض من الأشاعرة، اتباعاً لابن عساكر، الأمر الذي حدا بابن المِبْرَد في (جمع الدساكر) ص ١٨٦ لأن يستدرك على هذا الأخير منتقداً إلحاقه بالأشاعرة وقائلا: «ثم ذَكر فيهم أبا نعيم، وليس بمسَلَّم له فيه، وهو اختلاق عليه».

ويَدل على أنه اختلاق، قول الأصبهاني في كتابه (محجة الواثقين ومدرجة الوامقين) - وقد نقله عنه شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ٥/ ٦٠-: «وأجمعوا أن الله فوق سماواته عالٍ على عرشه، مستوٍ عليه لا مستولٍ عليه كما تقول الجهمية: إنه بكل مَكان.. له العرش المستوي عليه، والكرسي الذي وسع السماوات والأرض، وهو قوله: (وسع كرسيه السماوات والأرض..) (البقرة: ٢٥٥).. وأنه تعالى يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده، فيغفر لمن يشاء من مذنبي الموحدين ويعذب من يشاء»ا.هـ.

كما يدل على أنه اختلاق ما نقله عنه الحافظ الذهبي في العلو ص ١٧٦، قال: «قال الحافظ الكبير أبو نعيم بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني في كتاب (الاعتقاد) له: (طريقتنا طريقة السلف المتبعين للكتاب والسنة وإجماع الأمة، ومما اعتقدوه: أن الله لم يزل كاملا بجميع صفاته القديمة، لا يزول ولا يحول، لم يزل عالمًا بعلم، بصيراً ببصر، سميعا بسمع، متكلما بكلام، ثم أحدث الأشياء من غير شيء، وأن القرآن كلام الله وكذلك سائر كتبه المنزلة، كلامه غير مخلوق، وأن القرآن في جميع الجهات: مقروءًا ومتلوا ومحفوظا ومسموعا ومكتوباً وملفوظاً كلام الله حقيقة لا حكاية ولا ترجمة.. وأن من قصد القرآن بوجه من الوجوه، يريد به خلق كلام الله، فهو عندهم من الجهمية، وأن الجهمي عندهم كافر».. إلى أن قال:

«وأن الأحاديث التي ثبتت في العرش واستواء الله عليه يقولون بها، ويثبتونها من غير تكييف ولا تمثيل، وأن الله بائن من خلقه والخلق بائنون منه، لا يحل بهم ولا يمتزج بهم، وهو مستوٍ على عرشه في سمائه من دون أرضه»ا.هـ... وعلق الذهبي يقول: «فقد نقل هذا الإمام، الإجماع على هذا القول ولله الحمد».

ويدل على كونه اختلاقاً أيضاً، ما نقله الإمام ابن القيم في اجتماع الجيوش ص ١١٠من قوله في عقيدته: «(وأن الله سميع بصير عليم خبير، يتكلم ويرضى ويسخط ويضحك ويعجب ويتجلى لعباده يوم القيامة ضاحكا، وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف يشاء فيقول: هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى يطلع الفجر، ونزول الرب تعالى إلى سماء الدنيا بلا كيف ولا تشبيه ولا تاويل، فمن أنكر النزول أو تأول فهو مبتدع ضال، وسائر الصفوة العارفين على هذا).

ثم قال: (وأن الله استوى على عرشه بلا كيف ولا تشبيه ولا تاويل، فالاستواء معقول والكيف مجهول، وأنه سبحانه بائن من خلقه، وخلقه بائنون منه بلا حلول ولا ممازجة ولا اختلاط ولا ملاصقة، لأنه البائن الفرد من الخلق، والواحد الغني عن الخلق).. وقال أيضاً: (طريقنا طريق السلف المتبعين للكتاب والسنة وإجماع الأمة)، وذكر اعتقادهم، ثم قال: (ومما اعتقدوه أن الله في سمائه دون أرضه)، وساق بقيته» ا.هـ.

فكيف يُتقول على أبي نعيم - وهذا كلامه في معتقده الذي هو معتقد السلف - بما لم يقله من تاويل وعدم إثبات؟، وأنى لهم أن يُركبونه ركب الأشاعرة استكثاراً للاتباع، وما هو منهم في قليل ولا كثير ولا هم منه؟، وأليس القائل من دونهم بإثبات جميع الصفات لله تعالى على حقيقتها، وبلا تفريق بين صفة وأخرى، وأن من تأول شيئاً منها فهو المبتدع الضال؟، وهلا قالوا بما قال به بدلاً من أن يغالطوا أنفسهم ويضللوا الأمة بما ادعوه عليه؟.

٣- شيخ الإسلام أبو عثمان الصابوني (ت ٤٤٩): وهو الإمام إسماعيل بن عبد الرحمن، ذكره ابن المِبْرَد ضمن من جانبوا الأشاعرة في تاويلاتهم، فقال في كتابه (جمع الدساكر) ص ٢١٩: «ومنهم أبو عثمان الصابوني شيخ الإسلام، كان إماما مجانبا لهم».. وكان ابن عساكر قد ادُعى عليه - وتبعه في ذلك بعض المعاصرين - أنه كان من متاخري الأشاعرة، وجعل ابن عساكر يستدل على ذلك في كتابه (تبيين كذب المفتري) ص ٣٨٩ بحكاية فهمها عنه على سبيل الخطا، قال: «سمعت الشيخ أبا بكر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن محمد البوشنجي الفقيه الزاهد، يحكي عن بعض شيوخه: أن الإمام الصابوني ما كان يخرج إلى مجلس درسه إلا وبيده كتاب (الإبانة) لأبي الحسن الأشعري، ويُظهر الإعجاب به، ويقول: (ما الذي يُنكر على هذا الكتاب شرحُ مذهبه؟)»، قال ابن عساكر معلقاً: «فهذا قول الإمام أبي عثمان وهو من أعيان أهل الأثر بخراسان».

والحق أن الاستدلال بمثل هذه الحكاية على أشعرية الصابوني خطأ كبير، لأمور:

أولها: أن هذه الحكاية إن صحت فإنها غير مستغرَبة؛ لأن كتاب (الإبانة) الذي ألّفه الأشعري في آخر حياته واعترف الصابوني بنسبته إليه، قد مشى فيه على مذهب أحمد وطريقة السلف، ورجع فيه عما كان عليه من طريقة ابن كلاب، على ما صرح بذلك الأشعري نفسه في ذات الكتاب، ونص عليه ابن درباس في (الذب عن أبي الحسن الأشعري)، قال في ص ١٠٧: «اعلموا معشر الإخوان.. بأن كتاب (الإبانة) الذي ألفه الإمام أبو الحسن الأشعري هو الذي استقر عليه أمره فيما كان يعتقده.. وكل مقالة تنسب إليه الآن مما يخالف ما فيه، فقد رجع عنها وتبرأ إلى الله منها».. والكلام في ذلك كثير وينظر في تفاصيله (الأشاعرة في ميزان أهل السنة) للقزاز وكتابنا (صحيح معتقد أبي الحسن في توحيد الصفات).

ثانيها: أن الإمام الصابوني قد كتب في بيان المعتقد كتاباً عظيماً أسماه (عقيدة السلف وأصحاب الحديث) - وهو مطبوع ومشهور - حكى فيه معتقدهم في الصفات، ومما جاء فيه قوله ص ٣٦- ٣٩: «ويثبتون له جل جلاله ما أثبت لنفسه في كتابه، وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، ولا يعتقدون تشبيهاً لصفاته بصفات خلقه، فيقولون: إنه خلق آدم بيده، ولا يحرفون الكلام عن مواضعه بحمل اليدين على النعمتين أو القوتين تحريف المعتزلة الجهمية أهلكهم الله، ولا يكيفونها بكيف أو يشبهونهما بأيدي المخلوقين تشبيه المشبهة خذلهم الله.. وكذلك يقولون في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن ووردت بها الأخبار الصحاح، من السمع والبصر والعين والوجه، والعلم والقوة والقدرة، والعزة والعظمة والإرادة والمشيئة، والقول والكلام، والرضا والسخط والحب والبغض والفرح والضحك وغيرها، من غير تشبيه لشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين، بل ينتهون فيها إلى ما قاله الله وقاله رسوله صلى الله عليه وسلم من غير زيادة عليه ولا إضافة إليه، ولا تكييف له ولا تشبيه، ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير، ولا إزالة للفظ الخبر عما تعرفه العرب وتضعه عليه بتاويل منكر، ويُجرُونه على الظاهر».

ومما قاله في الاستواء والعلو ص ٤٤: «ويعتقد أصحاب الحديث ويشهدون أن الله تعالى فوق سبع سمواته على عرشه كما نطق به كتابه.. وعلماء الأمة وأعيان الأئمة من السلف لم يختلفوا في أن الله على عرشه، وعرشه فوق سماواته»، وساق في ذلك كلام أهل العلم.. فهل بعد هذا يصح نسبة الإمام الصابوني للأشعرية؟!.

٤- الإمام البغوي (ت ٥١٦): هو محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود، ادُعى عليه بعض المعاصرين كونه أشعرياً، بينما الأمر في الحقيقة على خلاف ذلك، فقد ذكره ابن المِبْرَد ضمن من كان مجانباً للأشاعرة فقال في كتابه (جمع الدساكر) ص ٢٢٧: «ومنهم الإمام محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن الفراء البغوي، كان مجانباً لهم».. ويشهد بذلك ما سطره البغوي نفسه في تفسيره المسمى: (معالم التنزيل)، وكتابه (شرح السنة)، حيث أقر فيهما معتقد أهل السنة والجماعة وعقد في الأخير منهما فصلاً للرد على الجهمية الذين يتاولون الصفات ومما قال فيه ١/ ١٦٣ وما بعدها بعد أن ساق أحاديث الأصابع:

«والإصبع المذكورة في الحديث صفة من صفات الله

عز وجل، وكذلك كل ما جاء به الكتاب أو السنة من هذا القبيل في صفات الله تعالى كالنفس والوجه واليدين والعين والرِّجل والإتيان والمجيء والنزول إلى السماء الدنيا والاستواء على العرش والضحك والفرح»، ثم قال بعد أن ساق الأدلة عليها: «فهذه ونظائرها، صفات لله تعالى ورد بها السمع، ويجب - على المسلم - الإيمان بها وإمرارها على ظاهرها، معرضاً عن التأويل مجتنبا عن التشبيه، معتقداً أن الباري سبحانه لا يشبه شيء من صفاته صفات الخلق، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق.. وعلى هذا مضى سلف الأمة وعلماء السنة، تلقوها جميعاً بالقبول والتسليم، وتجنبوا فيها عن التمثيل والتأويل، ووكلوا العلم فيها إلى الله عز وجل»، ثم ساق في ذلك آثار السلف.

فانظر كيف كان إثبات البغوي لصفات الله، وكيف أراد بقوله «ووكلوا العلم فيها إلى الله»: تفويض علم حقائقها وكنهها وكيفياتها دون علم معناها، وإلا لما كان لقوله: «وإمرارها على ظاهرها» معنى، فإن الإمرار على الظاهر هو حملها على ما دل عليه لفظها من المعنى المعروف لغة مع نفي التشبيه.

ومما سطره في (معالم التنزيل) قوله - رحمه الله - في تفسير قول الله تعالى: (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله.. البقرة/ ٢١٠): «والأولى في هذه الآية وما شاكلها أن يؤمن الإنسان بظاهرها ويكل علمها إلى الله تعالى، ويعتقد أن الله منزه عن صفات الحدث، على ذلك مضت أئمة السلف وعلماء السنة».. وقوله في تفسير (بل يداه مبسوطتان..) (المائدة/ ٦٤): «ويد الله صفة من صفاته كالسمع والبصر والوجه، قال عز وجل: (لما خلقت بيدي..) (ص/ ٧٥)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (كلتا يديه يمين) ، والله أعلم بصفاته، فعلى العباد فيها الإيمان والتسليم، قال أئمة السلف من أهل السنة في هذه الصفات: (أمِرُّوها كما جاءت بلا كيف)».

كما جاء في رده على ترهات المعتزلة قوله في تفسير قول الله تعالى: (ثم استوى على العرش..) (الأعراف/ ٥٤): «أولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء، وأما أهل السنة فيقولون: الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف، يجب على الرجل الإيمان به ويكل العلم فيه إلى الله عز وجل»، ثم ساق في ذلك مقولة مالك وأئمة السلف رحمهم الله.

٥- الحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤): وهو أيضاً أحد من ادُّعي عليه من قِبل بعض المعاصرين كونه أشعرياً، مستدلين على دعواهم بما ورد في ترجمة ابن القيم في الدرر الكامنة لابن حجر ١/ ٦٠ قال: «ومن نوادره أنه وقع بينه وبين ابن كثير منازعة في تدريس الناس، فقال له ابن كثير: (أنت تكرهني لأنني أشعري)، فقال له ابن القيم: (لو كان من رأسك إلى قدمك شَعَر، ما صدَّقك الناس في قولك أنك أشعري وشيخك ابن تيمية)».. وهي قصة لم يذكر ابن حجر مَن حدَّثه بها، وعلى القول بصحتها فإن ظاهرها يدل على صحة دعواه، لكون شيخه هو ابن تيمية المعروف بالرد على الأشاعرة وإبطال معتقداتهم التي خالفوا فيها الكتاب والسنة وما كان عليه السلف، بل والذي عظم انتصاره لمذهب السلف حتى اجتمع عليه أشاعرة عصره وسجنوه لأجل إثباتها عدة مرات، فكيف يكون تلميذه مع كل هذا أشعرياً؟.. وأنى وهذا تفسيره وتلك رسالته (الاعتقاد)، قد سطر فيهما معتقده بشكل جلي واضح.

ومما قاله في الأخيرة: «إذا نطق الكتاب العزيز ووردت الأخبار الصحيحة بإثبات السمع والبصر، والعين والوجه، والعلم والقدرة والعظمة والمشيئة والإرادة والقول والكلام، والرضا والسخط، والحب والبغض، والفرح والضحك، وجب اعتقاد حقيقة ذلك من غير تشبيه بشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين، ووجب الانتهاء إلى ما قاله سبحانه وقاله رسوله صلى الله عليه وسلم من غير إضافة ولا زيادة عليه، ولا تكييف ولا تشبيه، ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير ولا إزالة لفظ عما تعرفه العرب وتصرفه عليه، والإمساك عما سوى ذلك»[مخطوط نقلاً عن كتاب (علاقة الإثبات لابن نعسان ص ٨٢]، كذا بالإثبات دونما تأويل لأي من صفاته تعالى ولا تفريق فيما بينها.

وفي تفسيره لقول الله تعالى: (ثم استوى على العرش..) (الأعراف/ ٥٤) ما نصه: «للناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه وليس كمثله شيء وهو السميع البصير، بل الأمر: كما قال الأئمة، منهم شيخ البخاري نعيم بن حماد الخزاعي قال: (من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه)، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى»، فهل بعد هذا البيان من بيان؟!

وللحديث بقية إن شاء الله والحمد لله رب العالمين.

وصايا وتنبيهات في ختام شهر رمضان

إعداد/ عبد العزيز مصطفى الشامي

الحمد لله رب العالمين سبحانه وتعالى له الحمد الحسن والثناء الجميل، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فمع رحيل شهر رمضان أحب أن أذكر نفسي وإخواني بشيء من الوصايا والتنبيهات، فمن ذلك:

أولاً: الانتباه للعمر والحذر من الدنيا:

إن عمر الإنسان منا هو كنزه الحقيقي ورأس ماله، وإن تضييعه والتفريط في دقائقه وساعاته وأيامه لمن الغبن والخسار الذي يقع فيه كثير من الناس وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ» [البخاري ٦٤١٢].

لذلك فمن الأمور المهمة التي ينبغي أن يقف معها العبد مع رحيل رمضان وصية النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ. وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ. [البخاري ٦٤١٦].

فالنبي صلى الله عليه وسلم يوصي عبد الله بن عمر وهو من آخر الصحابة موتاً، يوصي شابًا في العشرين من العمر.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله معلقًا على وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابن عمر: «هذا الحديث أصل في قِصَر الأمل في الدنيا، وأن المؤمن لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطنًا ومسكنًا، فيطمئن فيها، ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر: يهيئ جهازه للرحيل، قال تعالى: «يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ» [غافر:٣٩]. وكان النبي يقول: «مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها» [رواه أحمد من حديث ابن مسعود ٣٩١/١، والترمذي ٢٣٧٧، وقال: حسن صحيح].

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول:

«إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ولكل منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل».

ثانيًا: الجمع بين الإحسان والخوف:

إن من تأمل أحوال الأنبياء والصحابة والصالحين وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، فهم جمعوا بين الإحسان والخوف، ونحن جمعنا بين الإساءة والأمن، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد كان هذا منهج السلف رحمهم الله تعالى في العبادة والمعاملة .

قال ابن القيِّم - رحمه الله- «إذا أراد الله تعالى بعبد خيرًا سلب رؤية أعماله الحسنة من قلبه، والإخبار بها من لسانه، وشغله برؤية ذنبه؛ فلا يزال نصب عينيه حتى يدخل الجنة؛ فإن ما تُقبِّل من الأعمال رُفع من القلب رؤيته، ومن اللسان ذكره. وقال بعض السلف: إن العبد ليعمل الخطيئة فيدخل بها الجنة، ويعمل الحسنة فيدخل بها النار. قالوا: كيف؟ قال: يعمل الخطيئة، فلا تزال نصب عينيه إذا ذكرها ندم واستقال وتضرع إلى الله، وبادر إلى محوها، وانكسر وذل لربه، وزال عنه عجبه وكبره، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه يراها ويَمُن بها ويعتد بها، ويتكبر بها حتى يدخل النار» [طريق الهجرتين ص ٢٧٠].

وقد حفلت مرويات السنة وكتبها بالعديد من المواقف الرائعة التي تبين شيئًا من عظمة هذا الجيل الفريد، ولا عجب فالمربي الأول والمعلم الأعظم لهم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وثبت عن أم المؤمنين عَائِشَةَ رضي الله عنه أنها قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ « الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ » أَهُوَ الرَّجُلُ يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ؟ قَالَ: لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، أَوْ لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ. [أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي ٢٥٧٠٥ وحسنه الألباني].

فهذه أم المؤمنين تظن أن الخائف ذي القلب الوجل هو إنسان أتى من الموبقات والكبائر ما يسخط الله عليه، ومثله يحق له الخوف، بل يجب، فصحَّح لها النبي صلى الله عليه وسلم الفهم وأرشدها إلى أن المتقين من عباد الله يجمعون مع الإحسان خوف عدم القبول، ولما لا؟ وقد خاف إبراهيم الخليل عليه السلام ورجا وطمع في القبول قال تعالى «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ» [البقرة: ١٢٧].

وهذا مثل آخر طيب فريد رواه الإمام البخاري في صحيحه عن ابن لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: «أُتِيَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمًا بِطَعَامِه -وكان صَائِمًا- فَقَالَ: قُتِلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَكَانَ خَيْرًا مِنِّي، فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مَا يُكَفَّنُ فِيهِ إِلَّا بُرْدَةٌ، وَقُتِلَ حَمْزَةُ أَوْ رَجُلٌ آخَرُ خَيْرٌ مِنِّي؛ فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مَا يُكَفَّنُ فِيهِ إِلَّا بُرْدَةٌ، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عُجِّلَتْ لَنَا طَيِّبَاتُنَا فِي حَيَاتِنَا الدُّنْيَا ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي) حتى رفع الطعام عندما تذكر إخوة له صالحين سبقوه إلى الله تعالى ولحسن ظنه بهم وإزرائه على نفسه فقد فضلهم على نفسه وهو خير منهما بإجماع المسلمين فعبد الرحمن بن عوف من العشرة المبشرين بالجنة، وهو أفضل من حمزة ومصب رضي الله عنهم جميعًا.

وهذا صحابي جليل قد لا يتذكر اسمه منا القليل سابع سبعة في الإسلام، روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ خَالِدِ بْنِ عُمَيْرٍ الْعَدَوِيِّ قَالَ: خَطَبَنَا عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِصُرْمٍ، وَوَلَّتْ حَذَّاءَ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ يَتَصَابُّهَا صَاحِبُهَا، وَإِنَّكُمْ مُنْتَقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لَا زَوَالَ لَهَا؛ فَانْتَقِلُوا بِخَيْرِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ؛ فَإِنَّهُ قَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفَةِ جَهَنَّمَ؛ فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا لَا يُدْرِكُ لَهَا قَعْرًا، وَوَاللَّهِ لَتُمْلَأَنَّ، أَفَعَجِبْتُمْ وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ، حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا فَالْتَقَطْتُ بُرْدَةً فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، فَاتَّزَرْتُ بِنِصْفِهَا وَاتَّزَرَ سَعْدٌ بِنِصْفِهَا؛ فَمَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا أَصْبَحَ أَمِيرًا عَلَى مِصْرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا وَعِنْدَ اللَّهِ صَغِيرًا، وَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ قَطُّ إِلَّا تَنَاسَخَتْ حَتَّى يَكُونَ آخِرُ عَاقِبَتِهَا مُلْكًا فَسَتَخْبُرُونَ وَتُجَرِّبُونَ الْأُمَرَاءَ بَعْدَنَا. [مسلم ٢٩٦٧].

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مع عبادته ومكانته العلمية كان متواضعًا هاضمًا لنفسه، منكرًا لذاته، يقول ابن القيم: «كان كثيرًا ما يقول: ما لي شيء ولا مني شيء ولا فيَّ شيء»، وإن مدحه أحد في وجهه قال: «والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلامًا جيدًا».

وقال ابن القيم - رحمه الله - موضحًا علاقة الصالحين مع ربهم: «والمقصود أن العبد يقوى إخلاصه لله وصدق معاملته، حتى لا يحب أن يطلع أحد من الخلق على حاله مع الله ومقامه معه؛ فهو يُخفي أحواله غيرةً عليها من أن تشوبها شائبة الأغيار، ويخفي أنفاسه خوفا عليها من الداخلة، وكان بعضهم إذا غلبه البكاء وعجز عن دفعه يقول: لا إله إلا الله ما أمر الزكام». [مدارج السالكين ٣/٤٢٢].

ثالثًا: علامة القبول:

إن حاجة العبد لعبادة الله أكيدة وهو لا يستغني عن ربه طرفة عين، قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «في القلب فاقة عظيمة وضرورة تامة وحاجة شديدة لا يسدها إلا فوزه بحصول الغنى بحب الله الذي إن حصل للعبد؛ حصل له كل شيء، وإن فاته؛ فاته كل شيء فكما أنه سبحانه الغني على الحقيقة، ولا غني سواه، فالغنى به وبحبه هو الغنى في الحقيقة ولا غنى بغيره البتة، فمن لم يستغن به عما سواه تقطعت نفسه حسرات، ومن استغنى به زالت عنه كل حسرة وحضره كل سرور وفرح والله المستعان. [طريق الهجرتين ص٣٤].

وعليه فإن أبيَن علامة على القبول هي استمرارُ العبد على الخير والعمل الصالح بعد رمضان. قال بعضهم: «ثوابُ الحسنةِ الحسنةُ بعدها، فمن عمل حسنة ثم أتبعها بحسنة بعدها كان ذلك علامة على قبول الحسنة الأولى، كما أن من عمل حسنة ثم أتبعها بسيئة كان ذلك علامة رد الحسنة وعدم قبولها».

إن مقابلة نعمة إدراك رمضان، والتوفيق لصيامه وقيامه بارتكاب المعاصي بعده لمن فعل من بدل نعمة الله كفرًا. فإن كان قد عزم في صيامه على معاودة المعاصي بعد انقضاء الصيام فصيامه من القبول في شك، إلا أن يعجِّل بتوبة نصوح. ما أحسن الحسنة بعد السيئة تمحوها، وأحسن منها الحسنةُ بعد الحسنة تعقبها! وما أقبح السيئة بعد الحسنة تمحقها وتعفوها! فلا ترجع أخي إلى المعصية بعد رمضان، واصبر عن لذة الهوى بحلاوة الإيمان، واصبر لله تعالى يعوضك خيرًا، قال الله تعالى: «إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» [الأنفال:٧٠].

وتلك قاعدة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» [متفق عليه]، قالت عائشة رضي الله عنها: «وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه» [رواه البخاري:٤٣].

إن استدامة الطاعة والمداومة على الأعمال الصالحة لهي في الحقيقة من عوامل الثبات على دين الله وشرعه، قال تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» [الأحقاف: ١٣]. وإن ترك المحرمات والعمل بما يوعظ به المرء من قبل خالقه ومولاه لأمر يحتاج إلى ترويض ومجاهدة من أجل الحصول على العاقبة الحميدة وحسن المغبة.

رابعًا: بماذا نختم شهرنا؟

أمر الله عباده أن يختموا أعمالهم العظيمة بالاستغفار والتوبة، فبعد كل صلاة استغفار، عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا، وَقَالَ «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ». قَالَ الْوَلِيدُ فَقُلْتُ لِلْأَوْزَاعِيِّ: كَيْفَ الِاسْتِغْفَارُ؟ قَالَ: تَقُولُ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ.[مسلم ٥٩١].

والحاج بعد نزوله من عرفة يلزم الاستغفار قال الله تعالى « ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ

وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» [البقرة: ١٩٩]، بل إن الله تبارك وتعالى أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يختم عمره المبارك بالاستغفار، فقال جل وعلا: « إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا» [النصر: ١-٣]. وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ. [متفق عليه].

كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى إلى الأمصار يأمرهم بختم شهر رمضان بالاستغفار والصدقة - صدقة الفطر - فإن صدقة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، والاستغفار يرقع ما تخرق من الصيام باللغو والرفث؛ ولهذا قال بعض المتقدمين: «إن صدقة الفطر للصائم كسجدتي السهو للصلاة».

وقال عمر بن عبد العزيز في كتابه: (قولوا كما قال أبوكم آدم: رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ [الأعراف:٢٣] وقولوا كما قال نوح عليه السلام: وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ [هود:٤٧] وقولوا كما قال إبراهيم عليه السلام: وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ [الشعراء:٨٢] وقولوا كما قال موسى عليه السلام: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي [القصص:١٦] وقولوا كما قال ذو النون عليه السلام: لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ [الأنبياء:٨٧]) [اللطائف:٣٨٧].

خامسا: أعمال ليلة العيد:

لما كانت المغفرة والعتق من النار، كل منهما مرتبًا على صيام رمضان وقيامه؛ أمر الله سبحانه وتعالى عند إكمال العدة بتكبيره وشكره فقال سبحانه: «وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» [البقرة:١٨٥] فشكرُ من أنعم على عباده بتوفيقهم للصيام، وإعانتهم عليه، ومغفرته لهم به، وعتقهم من النار: أن يذكروه ويشكروه ويتقوه حق تقاته. و قد فسر ابن مسعود تقواه حق تقاته: «بأن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر» [تفسير ابن أبي حاتم:٢/٤٤٦ وهو صحيح موقوف].

والتكبير مشروع من غروب الشمس يوم العيد إلى صلاة العيد، يجهر به الرجال في المساجد والأسواق والبيوت كما كان السلف يفعلون.

ومن السنة: أن يأكل قبل الخروج إلى الصلاة في عيد الفطر تمرات وترًا، ثلاثا، أو خمسًا، أو أكثر من ذلك. يقطعها على وتر؛ لقول أنس ابن مالك رضي الله عنه: «كان رسول الله لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل تمرات ويأكلهن وترًا» [البخاري:٩٥٣].

ويخرج النساء لصلاة العيد غير متبرجات بزينة ولا متعطرات، يحضرن الصلاة والذكر.

ومما يلزم التنبيه عليه أن بعض الناس يهمل أهله وبناته في لباسهن، فيكون فيه مخالفاتٌ شرعية، يخرجن يوم العيد يفتن الناس، وسيسأل عن إهماله هذا يوم القيامة، فيجب على من استرعاه الله نساء أن يطلع على لباسهن للعيد، فإن كان موافقًا للشرع وإلا منعهن من لبسه؛ حماية لهن من الوقوع في الإثم، وأداءً للأمانة التي حمّله الله إياها.

ثم إن كثيرًا من الناس بمجرد إعلان العيد يخرجون للأسواق، فتضيع ليلة العيد في التجوال في الأسواق مع ما تعج به من منكرات، فلا يسلم روادها من الوقوع في الإثم والمنكر. وما هكذا يشكر الله تعالى في ليلة العيد التي ينبغي أن يكثر فيها من الاستغفار والذكر والتكبير حتى يختم الشهر بخاتمة حسنة.

نداء لمن أساء في رمضان:

يا من أساء في رمضان وفرّط وضيّع إياك أن تيأس فإن رب رمضان هو رب سائر الأيام، ومتى رجعت إليه تائبًا نادمًا قبلك، ولم يردك، فلا يغرنك الشيطان بأنك أضعت مواسم الخير، واعلم أن ربك واسع المغفرة لمن تاب وآمن وعمل عملاً صالحا.

أسأل الله العلي القدير أن يتقبلنا بقبول حسن وأن يصلح قلوبنا وأعمالنا، وأن يعيد رمضان علينا باليمن والخير والبركات، إنه سميع مجيب والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

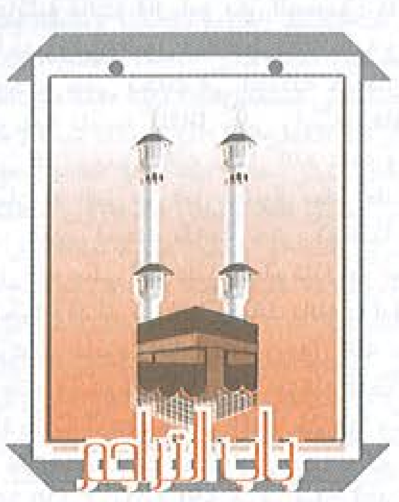

أمين الأمة: أبو عبيدة بن الجرّاح

إعداد/ صلاح نجيب الدق

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين والمبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أما بعْد: فإن أبا عبيدة بن الجراح، هو أحد السابقين إلى الإسلام، وأحد العشرة الذين بشرهم رسول الله بالجنة. وهو أحد أصحاب نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذين قال مدحهم الله تعالى في كتابه العزيز قائلا: (لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ) (التوبة: ٨٨:٨٩) من أجل ذلك أحببت أن أذكرَ نفسي وإخواني الكرام بشيء من سيرته العطرة، لعلنا نسير على ضوئها فنسعد في الدنيا و الآخرة.فأقول وبالله تعالى التوفيق:

اسمه ونسبه:

هو: عامر بن عبد الله بن الجرّاح بن هلال بن فِهر.

كُنيته أبو عُبيدة.

أمه: أميمة بنت غَنْم بن جابر بن عُمَيرة. (الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٣صـ٣١٢).

صفة أبي عبيدة الخلْقية:

كان أبو عُبيدة بن الجرّاح رجلاً، نحيفاً، معروق الوجه، خفيف اللحية، طوالاً، أجنا(منحني الظهر) أثرم الثنيتين(سقطت ثنيتاه من أصلهما) وكان يصبغ رأسه ولحيته بالحناء والكَتم. (الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٣صـ٣١٢).

إسلام أبي عبيدة بن الجراح:

قال يزيد بن رومان: انطلق عثمان بن مظعون، وعبيدة بن الحارث، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وأبو عبيدة بن الجرّاح حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعرض عليهم الإسلام، وأنبأهم بشرائعه، فأسلموا في ساعة واحدة، وذلك قبل دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم

دار الأرقم بن أبي الأرقم. (الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٣صـ٣١٣، وسير أعلام النبلاء للذهبي جـ١صـ٧:٨).

هجرة أبي عبيدة:

هاجر أبو عبيدة بن الجرَّاح إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وآخى رسول الله صلى الله عليه و سلم بينه وبين سعد بن معاذ. (الإصابة لابن حجر العسقلاني جـ٢ صـ٢٤٤).

مرويات أبي عبيدة بن الجراح:

روى أبو عبيدة خمسة عشر حديثًا، وله في صحيح مسلم حديث واحد، وله كذلك حديث واحد في سنن الترمذي.

حَدَّثَ عنه العِرباض بن سارية، وجابر بن عبد الله، وأبو أُمامة الباهلي، وسَمُرَة بن جُندب، وأسْلِم مولى عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن غَنْم، وآخرون. (سير أعلام النبلاء للذهبي جـ١صـ٦).

جهاد أبي عبيدة بن الجراح:

شهدَ أبو عبيدة بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه و سلم. كان أبو عبيدة أحد الأمراء المسيرين إلى الشام، والذين فتحوا دمشق، ولما ولي عمر بن الخطاب الخلافة عزل خالد بن الوليد واستعمل أبا عبيدة فقال خالد: ولي عليكم أمين هذه الأمة، وقال أبو عُبيدة: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: « إن خالداً لسيف من سيوف الله. (أسد الغابة لابن الأثير جـ٣صـ٢٣، وصفة الصفوة لابن الجوزي جـ١صـ٣٦٥).

أبو عبيدة بن الجراح في غزوة بدر:

كان والد أبي عبيدة بن الجرَّاح يتصدى لابنه أبي عبيدة يوم بدر، فكان أبو عبيدة يبتعد عنه، فلما أكثر، قصده أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية حين قتل أباه (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (المجادلة:٢٢). (حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني جـ١صـ١٠١).

أبو عبيدة في غزوة أحد:

عن عائشة قالت: قال أبو بكر الصديق: لما كان يوم أحد ورمي رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه حتى دخلت في أجنتيه حلقتان من المغفر (ما يلبسه المقاتل على رأسه)، فاقبلت أسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنسان قد اقبل من قبل المشرق يطير طيرانا، فقلت: اللهم اجعله طاعة حتى توافينا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا أبو عبيدة بن الجراح قد بدرني فقال أسألك بالله يا أبا بكر ألا تركتني فأنزعه من وجنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو بكر: فتركته فأخذ أبو عبيدة بثنية إحدى حلقتي المغفر فنزعها وسقط على ظهره وسقطت ثنية أبي عبيدة، ثم أخذ الحلقة الأخرى بثنية الأخرى فسقطت فكان أبو عبيدة في الناس أثرم(أهتم) وكان أبو عبيدة من أحسن الناس هتماً. (الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٣صـ٣١٣).

حُسن خلق أبي عبيدة:

قال موسى بن عُقبة: أمَّر النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل، وهي على مشارف (بداية) الشام، فخشي عمرو، فبعث يستمد فندب النبي صلى الله عليه وسلم الناس من المهاجرين الأولين فانتدب أبو بكر وعمر في آخرين فأمَّر عليهم أبا عبيدة بن الجرَّاح مدداً لعمرو بن العاص. فلما قدموا عليه، قال: أنا أميركم. فقال المهاجرون:بل أنت أمير أصحابك وأبو عبيدة أمير المهاجرين. فقال: إنما أنتم مددي، فلما رأى ذلك أبو عبيدة وكان حَسَن الخلُق متبعاً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده فقال: تعلم يا عمرو أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال لي: إن قدمت على صاحبك فتطاوعا، وإنك إن عصيتني أطعتك. (الإصابة لابن حجر العسقلاني جـ٢صـ٢٤٤).

أبو عبيدة أمير غزوة الخبط:

قال جابر بن عبد الله: بعثنا رسول الله صلى الله عليه و سلم مع أبي عبيدة بن الجرَّاح ونحن ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً وزودنا جراباً من تمر فأعطانا منه قبضة قبضة، فلما أنجزناه

أعطانا تمرةً تمرةً، فلما فقدناها وجدنا فَقْدها ثم كنا نخبط الخبط بقسينا ونسفه ونشرب عليه من الماء حتى سمينا جيش الخبط ثم أخذنا على الساحل فإذا دابة ميتة مثل الكثيب يُقال لها العنبر فقال أبو عبيدة: ميتة لا تأكلوا ثم قال جيش رسول الله صلى الله عليه و سلم وفي سبيل الله ونحن مضطرون فاكلنا منه عشرين ليلة أو خمس عشرة ليلة، قال: ولقد جلس ثلاثة عشر رجلا منا في موضع عينه، وأقام أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعه، فوضعه على أجسم بعير، فلما قدمنا على رسول الله قال: ما حبسكم؟ قال: كنا نبتغي (إبل) قريش، فذكرنا له شأن الدابة فقال: إنما هو رزق رزقكموه الله، أمعكم منه شيء؟ قلنا: نعم. (الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٣صـ٣١٤).

الخبَط: ضَرْبُ الشجرة بالعصا ليَتناثر ورقُها، واسم الورق الساقط خَبَط. (النهاية في غريب الحديث لابن الأثير جـ٢صـ١١).

أبو عبيدة يحث على الجهاد:

قال أسلم، مولى عمر بن الخطاب: بلغ عمر أن أبا عبيدة حصر بالشام، ونال منه العدو، فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنه ما نزل بعبد مؤمن شدة، إلا جعل الله بعدها فرجا، وإنه لا يغلب عسر يسرين (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (آل عمران: ٢٠٠). قال: فكتب إليه أبو عبيدة: أما بعد، فإن الله يقول: (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) (الحديد: ٢٠)، قال: فخرج عمر بكتابه، فقرأه على المنبر فقال: يا أهل المدينة: إنما يعرِّض بكم أبو عبيدة، أو بي، ارغبوا في الجهاد. (سير أعلام النبلاء للذهبي جـ١صـ١٥:١٦).

زهد أبي عبيدة:

أرسل عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بأربعة آلاف درهم وأربعمائة دينار وقال للرسول: انظر ما يصنع قال فقسمها أبو عبيدة، قال ثم أرسل إلى معاذ بمثلها، وقال للرسول مثل ما قال، فقسمها معاذ إلا شيئاً. قالت امرأته: نحتاج إليه فلما أخبر الرسول عمر، قال: الحمد لله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا. (الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٣صـ٣١٥:٣١٦).

خوف أبي عبيدة بن الجراح:

قال قتادة: قال أبو عبيدة بن الجرَّاح: وددت أني كبش فذبحني أهلي فأكلوا لحمي وحَسَوا (شربوا) مرقي. (الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٣صـ٣١٥).

مناقب أبي عبيدة بن الجراح:

(١) عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدٌ (ابن أبي وقاص) فِي الْجَنَّةِ، وَسَعِيدٌ (ابن زيد) فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ. (صحيح سنن الترمذي للألباني حديث ٢٩٤٦).

(٢) عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ أَهْلُ نَجْرَانَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: ابْعَثْ لَنَا رَجُلًا أَمِينًا. فَقَالَ: لَأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ، فَاسْتَشْرَفَ لَهُ النَّاسُ، فَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ. (البخاري حديث:٤٣٨١، ومسلم حديث:٢٤٢٠).

(٣) عَنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ. (البخاري حديث:٤٣٨٢، ومسلم حديث:٢٤١٩).

(٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نِعْمَ الرَّجُلُ أَبُو بَكْرٍ، نِعْمَ الرَّجُلُ عُمَرُ، نِعْمَ الرَّجُلُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، نِعْمَ الرَّجُلُ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، نِعْمَ الرَّجُلُ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، نِعْمَ الرَّجُلُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، نِعْمَ الرَّجُلُ مُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ. (صحيح سنن الترمذي للألباني حديث ٢٩٨٤).

(٥) عن عائشة أنها سُئلت: مَنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَخْلِفًا لَوْ اسْتَخْلَفَهُ؟ قَالَتْ: أَبُو بَكْرٍ. فَقِيلَ لَهَا ثُمَّ مَنْ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ؟ قَالَتْ: عُمَرُ، ثُمَّ قِيلَ لَهَا مَنْ بَعْدَ عُمَرَ؟ قَالَتْ: أَبُو

عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، ثُمَّ انْتَهَتْ إِلَى هَذَا. (مسلم حديث٢٣٨٥).

(٦) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ: أَيُّ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ أَحَبَّ إِلَيْهِ؟ قَالَتْ: أَبُو بَكْرٍ. قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَتْ: ثُمَّ عُمَرُ. قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَتْ: ثُمَّ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ فَسَكَتَتْ. (صحيح سنن الترمذي للألباني حديث ٢٨٩٢).

(٧) قال الذهبي: كان أبو عبيدة معدوداً فيمن جمع (حفظ) القرآن العظيم. (سير أعلام النبلاء للذهبي جـ١صـ١٥:١٦).

منزلة أبي عبيدة عند أبي بكر الصديق:

عن ابن عباس أن أبا بكر الصديق قال (للمهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة): قَدْ رَضِيتُ لَكُمْ أَحَدَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ أَيَّهُمَا شِئْتُمْ وَأَخَذَ بِيَدِي وَبِيَدِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ. (مسند أحمد جـ١صـ٤٥٣ بسند صحيح).

وقد تولى أبو عبيدة بيت مال المسلمين في خلافة أبي بكر الصديق. (سير أعلام النبلاء للذهبي جـ١صـ١٥)

منزلة أبي عبيدة عند عمر بن الخطاب:

(١) عَنْ شُرَيْحِ بْنِ عُبَيْدٍ وَرَاشِدِ بْنِ سَعْدٍ وَغَيْرِهِمَا قَالُوا: لَمَّا بَلَغَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَرْغَ حُدِّثَ أَنَّ بِالشَّامِ وَبَاءً شَدِيدًا قَالَ بَلَغَنِي أَنَّ شِدَّةَ الْوَبَاءِ فِي الشَّامِ، فَقُلْتُ إِنْ أَدْرَكَنِي أَجَلِي وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ حَيٌّ اسْتَخْلَفْتُهُ فَإِنْ سَأَلَنِي اللَّهُ لِمَ اسْتَخْلَفْتَهُ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ أَمِينًا وَأَمِينِي أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ. فَأَنْكَرَ الْقَوْمُ ذَلِكَ وَقَالُوا: مَا بَالُ عُلْيَا قُرَيْشٍ يَعْنُونَ بَنِي فِهْرٍ ثُمَّ قَالَ فَإِنْ أَدْرَكَنِي أَجَلِي وَقَدْ تُوُفِّيَ أَبُو عُبَيْدَةَ اسْتَخْلَفْتُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ فَإِنْ سَأَلَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ لِمَ اسْتَخْلَفْتَهُ؟ قُلْتُ: سَمِعْتُ رَسُولَكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّهُ يُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيْ الْعُلَمَاءِ نَبْذَةً. (مسند أحمد جـ١صـ٢٦٣حديث:١٠٨، وقال الأرناءوط: حسن لغيره وهذا إسناد رجاله ثقات).

(٢) عن أسْلَم، مولى عمر، أن عمر بن الخطاب قال لأصحابه: تمنوا فقال رجل: أتمنى لو أن لي هذه الدار مملوءة ذهباً أنفقه في سبيل الله، ثم قال تمنوا، فقال رجل أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤاً وزبرجداً وجوهراً، أنفقه في سبيل الله، وأتصدق، ثم قال تمنوا، فقالوا: ما ندري يا أمير المؤمنين، فقال عمر: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجرَّاح. (حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني جـ١صـ١٠٢).

(٣) قال عُروة بن الزبير: لما قدم عمر الشام تلقاه الناس وعظماء أهل الأرض، فقال عمر: أين أخي؟ قالوا: من؟ قال: أبو عبيدة. قالوا: الآن يأتيك، فلما أتاه نزل فاعتنقه ثم دخل عليه بيته فلم ير في بيته إلا سيفه وترسه ورحله، فقال له عمر: ألا اتخذت ما اتخذ أصحابك؟(أثاث جديد) فقال يا أمير المؤمنين هذا يبلغني المقيل. (حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني جـ١صـ١٠٢).

وفاة أبي عبيدة بن الجراح:

مات أبو عبيدة بن الجرَّاح في طاعون عَمَواس (بالأردن) سنة ثماني عشرة هجرية في خلافة عمر بن الخطاب، وكان عمر أبي عبيدة ثمان وخمسين سنة.(الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٣صـ٣١٧).

لما مات أبو عبيدة بن الجرَّاح، خطب معاذ بن جبل فقال: أيها الناس: إنكم فُجعتم برجل والله مارأيت من عباد الله قط أقل حقداً، ولا أبر صدراً ولا أبعد غائلة ولا أشد حياءً للعاقبة، ولا أنصح للعامة منه، فترحموا عليه. (الإصابة لابن حجر العسقلاني جـ٢صـ٢٤٥).

رَحِمَ اللهُ تعالى أبا عبيدة بنَ الجرَّاح، رحمةً واسعةً، وجزاه عن الإسلام خير الجزاء. ونسأل الله تعالى أن يجمعنا به في الفردوس الأعلى من الجنة. وآخر دعوانا أن الحمدُ لله رب العالمين.

وصلى اللهُ وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه، والتابعينَ لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

فتاوى

حكم زكاة الفطر

زكاة الفطر لمن لا يملك النصاب

س: إذا كان المسلم الصائم محتاجاً لا يملك نصاب الزكاة، هل يتوجب عليه دفع زكاة الفطر؟

الجواب: صدقة الفطر واجبة على كل مسلم تلزمه مؤنة نفسه إذا فضل عنده عن قوته وقوت عياله يوم العيد وليلته: صاع، والأصل في ذلك ما ثبت عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: (فرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - زكاة الفطر صاعاً من تمر، أو صاعاً من شعير، على العبد والحر، والذكر والأنثى، والصغير والكبير من المسلمين، وأمر بها أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة) متفق عليه واللفظ للبخاري.[فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء فتوى(٥٧٣٣) الجزء التاسع ص٤٦٤)].

وقت إخراج زكاة الفطر

س: هل وقت إخراج زكاة الفطر من بعد صلاة العيد إلى آخر ذلك اليوم؟

الجواب: يبدأ وقت زكاة الفطر من غروب شمس آخر يوم من رمضان، وهو أول ليلة من شهر شوال، وينتهي بصلاة العيد ؛ لما رواه ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: « من أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات» ويجوز إخراجها قبل ذلك بيوم أو يومين لما رواه ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: (فرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صدقة الفطر من رمضان..)، وقال في آخره (وكانوا يعطون قبل ذلك بيوم أو يومين). فمن أخرها عن وقتها فقد أثم وعليه أن يتوب من تأخيره، وأن يخرجها للفقراء. [فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء فتوى(٢٨٩٦) الجزء التاسع ص٣٧٣].

توزيع زكاة الفطر

س: أرسلت زكاة الفطر الخاصة بي إلى أهلي في مصر لكي يخرجوها في البلد، وأنا مقيم في السعودية، فهل هذا العمل صحيح؟

الجواب: لا بأس بذلك وتجزئ إن شاء الله في أصح قولي العلماء، لكن إخراجها في محلك الذي تقيم فيه أفضل وأحوط، وإذا بعثتها لأهلك ليخرجوها على الفقراء في بلدك فلا بأس. [فتاوى الشيخ ابن باز (ج١٤/ ص ١٩٨-٢١٨)].

أهل زكاة الفطر

س: الفقراء الذي يتعاطون

الدخان هل يعطون من زكوات الفطر أم لا؟

الجواب: لا يكون صنيعهم مانعًا من إعطائهم من الزكاة؛ لأنهم بذلك لا يخرجون عن ملة الإسلام، وإنما هم مؤمنون بإيمانهم فسقة بما يتعاطونه من المحرمات، يجب على ولي الأمر منعهم مما يتعاطونه وعقوبتهم على ذلك. ونسأل الله لنا ولهم الهداية والتوفيق لما يحبه ويرضاه. [اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء].

زكاة المال
زكاة المال تخرج من جنسه

س: هل يجوز إعطاء الزكاة من غير جنسها؟

الجواب: على صاحب المال أن يخرج زكاة المال من جنسه، فيخرج من المال النقدي نقدا، ويخرج من البُر بُرا، ومن الأرز أرزا ، ومن التمر تمرًا وهكذا.

وأما المال المعد للتجارة فتجب فيه الزكاة إذا بلغ نصابا بنفسه أو بضمه إلى غيره مما يزكى من النقد، أو عروض التجارة وحال عليه الحول، ويخرج مقدار ربع العشر، أي اثنان ونصف في المائة ٢,٥٪ نقدا. [اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء].

حكم صيام الست من شوال

س: هل هناك أفضلية لصيام ست من شوال؟ وهل تصام متفرقة أم متوالية؟

الجواب: نعم، هناك أفضلية لصيام ستة أيام من شهر شوال، كما جاء في حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «من صام رمضان ثم أتبعه بست من شوال كان كصيام الدهر» رواه مسلم.

ويجوز أن تكون متفرقة أو متتابعة، لكن التتابع أفضل؛ لما فيه من المبادرة إلى الخير وعدم الوقوع في التسويف الذي قد يؤدي إلى عدم الصيام. [فتاوى ابن عثيمين].

المسلم يتبع في فطره البلد الذي يقيم فيه

س: رجل رأى هلال رمضان في بلده وبدأ الصوم، ثم سافر إلى بلد آخر ودخل عليه ٢٨ رمضان وأهل تلك البلدة رأوا هلال شوال، فهل يصلي معهم العيد مع أن مدة صيامه ٢٨ يومًا؟

الجواب: العبرة في بدء صيام رمضان برؤية الهلال في مطلعه بجهته يوم كان في بلده، وكذلك الحال في الفطر فتعتبر رؤية هلال شوال في البلد الذي سافر إليه.

وعلى ذلك يجب أن يفطر ويصلي العيد مع من في البلد الذي رئي فيه هلال شوال، وهو بين أظهرهم، ويقضي ما نقص من أيام صومه حتى يكون ما صامه تسعة وعشرين يومًا؛ لأن الشهر يكون ٢٩ أحيانا و٣٠ أحيانًا. [اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء].

حكم التهنئة بالعيد

س: ما حكم التهنئة بالعيد؟ وهل لها صيغة معينة ؟

أجاب الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «التهنئة بالعيد جائزة، وليس لها تهنئة مخصوصة، بل ما اعتاده الناس فهو جائز ما لم يكن إثماً». اهـ.

وقال أيضاً: «التهنئة بالعيد قد وقعت من بعض الصحابة رضي الله عنهم، وعلى فرض أنها لم تقع فإنها الآن من الأمور العادية التي اعتادها الناس، يهنئ بعضهم بعضاً ببلوغ العيد واستكمال الصوم والقيام» اهـ.[«مجموع فتاوى ابن عثيمين» (١٦/٢٠٨-٢١٠)].

دراسات قرآنية

الأمثال في القرآن

الحلقة الخامسة

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من الأمثال في القرآن، وهو من سورة البقرة الآية الرابعة عشرة بعد المائتين، وهي قوله تعالى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ» [البقرة: ٢١٤].

المعنى الإجمالي:

قال ابن القيم في زاد المعاد (٣/١١) وهو يتكلم عن آيات الابتلاء: «فليتامل العبد سياق هذه الآيات وما تضمنته من العِبَر وكنوز الحِكَم، فإن الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين؛ إما أن يقول أحدهم: آمنا، وإما ألا يقول ذلك، بل يستمر على السيئات والكفر، فمن قال آمنا امتحنه ربه وابتلاه وفتنه، والفتنة الابتلاء والاختبار ليتبين الصادق من الكاذب، ومن لم يقل آمنا فلا يَحسب أنه يُعجزُ الله ويفوتُهُ ويسبقه فإنه إنما يطوي المَراحل في يديه.

وكيف يفر المرء عن ذنبه إذا
كان تُطوى في يديه المراحل

فمن آمن بالرسل وأطاعهم، عاداه أعداؤهم، وآذوه فابتلي بما يؤلمه، وإن لم يؤمن بهم ولم يطعهم عُوقب في الدنيا والآخرة، فحصل له ما يؤلمه، وكان هذا المؤلم له أعظم ألما وأدوم من ألم اتباعهم، فلا بد من حصول الألم لكل نفس آمنت أو رغبت عن الإيمان، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداءً ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداءً ثم يصيرُ إلى الألم الدائم.

والله سبحانه وتعالى ابتلى أولي العزم من الرسل، فلما صبروا مكّنهم؛ فلا يظنّ أحد أنه يخلص من الألم البتة، وإنما يتفاوت أهل الآلام في العقول، فأعقلهم من باع ألما مستمرًا عظيمًا بألم منقطع يسير، وأشقاهم من باع الألم المنقطع اليسير بالألم العظيم المستمر. اهـ.

وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة رضي الله عنهم في يوم الأحزاب، كما قال الله تعالى: «إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا» [الأحزاب: ١٠- ١١]، ولما سأل هرقل أبا سفيان: هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف كانت الحرب بينكم؟ قال: سجالاً، يُدَال علينا ونُدَال عليه. قال: كذلك الرسل تُبتَلى ثم تكون لها العاقبة. [تفسير ابن كثير ١/٣٢٨].

التفسير المفصل:

قوله تعالى: «أم حسبتم»، «أم» من حروف العطف، وهي هنا منقطعة بمعنى «بل»، يقدر بعده همزة الاستفهام أي: بل أحسبتم، فهي إذًا للإضراب الانتقالي، وهو الانتقال من كلام إلى آخر، فعلى هذا معنى الاستفهام هنا التقرير والإنكار أي أحسبتم دخولكم الجنة واقعًا، والغرض من هذا التوبيخ تشجيعهم على الصبر وحثهم عليه، وحسب هنا من أخوات ظن، وقد تستعمل في اليقين. [انظر تفسير ابن عثيمين وفتح البيان].

قال ابن عطية في المحرر الوجيز: «أحسبتم دخولكم الجنة خلوًا من أن يصيبكم ما أصاب من قبلكم» ؛ لأن «خلوا» حال، والحال هنا إنما تأتي بعد توفية المفعولين، والمفعولان هما الابتداءُ والخبر قبل دخول حسب، و«الباساءُ» في المال، و«الضراءُ» في البدن، و«خَلوا» معناه: انقرضوا، أي صاروا في خلاء من الأرض.

وهذه الآية نزلت في قصة الأحزاب حين حصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في المدينة، هذا قول قتادة والسدي وأكثر المفسرين، وقالت فرقة: نزلت الآية تسلية للمهاجرين الذين أصيبت أموالهم بعدهم في بلادهم وفتنوا هم قبل ذلك. (المحرر الوجيز لابن عطية ١/٥١٥-٥١٦].

قوله تعالى: «أن تدخلوا الجنة»، «الجنة» هي الدار

التي أعدها الله للمتقين فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قوله تعالى: «ولما يأتكم»، «ولمّا» حرف نفي، وجزم، وقلب، والفرق بينهما وبين «لم»: أن «لما» للنفي مع توقع وقوع المنفي، و«لم» للنفي دون ترقب وقوعه، مثاله: إذا قلت: «لم يقم زيد» فقد نفيت قيامه من غير ترقب لوقوعه، ولو قلت: «لما يقمْ زيد» فقد نفيت قيامه مع ترقب وقوعه، ومنه قوله تعالى: «بَل لما يَذُوقُوا عَذَابِ» [ص: ٨]. [تفسير ابن عثيمين].

و«مثل» معناه: شبه، فالتقدير: أي شبه الذين خلوا، وقوله تعالى: «مستهم البأساء والضراء» بيان لهذا المثل، كأنه قيل: ما ذلك المثل؟ قيل: مستهم البأساء والضراء، فليس لهذه الجملة محل إعراب؛ لأنها تفسير لما قبلها، وفي الآية استدعاء للصبر الذي هو وسيلة النصر كما قال الله تعالى: «أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ» [البقرة: ٢١٤]، أي من الصابرين. «المحرر الوجيز» (٥١٦/١).

وقوله تعالى: «مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟» [البقرة: ٢١٤]، هذه ثلاثة أشياء: «الباساء»: قالوا: إنها شدة الفقر مأخوذة من البؤس، وهو الفقر الشديد، و«الضراء»، قالوا: إنها المرض، والمصائب البدنية، و«زلزلوا» «الزلزلة» هنا ليست زلزلة الأرض، لكنها زلزلة القلوب بالمخاوف والقلق والفتن العظيمة، والشبهات، والشهوات، فتكون الإصابات هنا في ثلاثة مواضع: في المال، والبدن، والنفس. اهـ.

قوله تعالى: «حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ» [البقرة: ٢١٤] أي: استمر ذلك إلى غاية هي قول الرسول ومن معه أي صاحبوه في الإيمان، و(حتى) بمعنى إلى وأن مضمرة أي: إلى أن يقول، وهي غاية لما تقدم من المس والزلزال؛ وذلك لأن الرسل أثبت من غيرهم وأصبر، وأضبط للنفس عند نزول البلايا، وكذلك أتباعهم المؤمنين.

قوله: «مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ» [البقرة: ٢١٤] «متى» ظرف زمان لا ينصرف إلا بجره بحرف والرسول هنا قيل هو محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: شعياء، وقيل: هو كل رسول بعث إلى أمته، وقالت طائفة في الكلام تقديم وتأخير، أي: حتى يقول الذين آمنوا متى نصر الله، ويقول الرسول: «ألا إن نصر الله قريب».

وقال ابن عباس: أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دار بلاء، وأنه مبتليهم فيها، وأخبرهم أنه هكذا فعل بأنبيائه وصفوته لتطيب أنفسهم، والمعنى أنه بلغ بهم الجهد والشدّة والبلاء ولم يبقَ لهم صبر، وذلك هو الغاية القصوى في الشدة، فلما بلغ الحال في الشدة إلى هذه الغاية، واستبطئوا النصر قيل لهم: «أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ» [البقرة: ٢١٤] إجابة لهم في طلبهم.

والمعنى هكذا كان حالهم لم يغيّرهم طول البلاء والشدة عن دينهم إلى أن يأتيهم نصر الله، فكونوا يا معشر المسلمين كذلك، وتحملوا الأذى والشدة والمشقة في طلب الحق؛ فإن نصره سبحانه قريب إتيانه لا بعيد، وفيه إشارة إلى أن المراد بالقرب الزماني، وفي إيثار الجملة الاسمية الفعلية المناسبة لما قبلها، وتصديرها بحرف التنبيه والتأكيد من الدلالة على تحقيق مضمونها وتقرر ما لا يخفى. [فتح البيان لصديق حسن القنوجي ٣٠٠/١].

من فوائد الآية:

١- عناية الله عز وجل بهذه الأمة، حيث يسليها بما وقع بغيرها؛ لقوله تعالى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم» [البقرة: ٢١٤]، وهكذا كما جاء في القرآن جاء في السنة، فالرسول صلى الله عليه وسلم لما جاءه أصحابه يشكون إليه بمكة فأخبرهم: «قد كان من قبلكم يُؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه، وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه». رواه البخاري؛ تثبيتًا للمؤمنين.

٢- من الفوائد: إثبات الجنة.

٣- ومنها: أن الإيمان ليس بالتمني ولا بالتحلي، بل لا بد من نية صالحة وصبر على ما يناله المؤمن من أذى في الله عز وجل.

٤- ومنها: حكمة الله عز وجل؛ حيث يبتلي المؤمنين بمثل هذه المصائب العظيمة امتحانًا حتى يتبين الصادق من غيره، كما قال الله تعالى: «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ» [محمد: ٣١]، فلا يُعرف زيف الذهب إلا إذا أذبناه بالنار، ولا يُعرف طيب العود إلا إذا أحرقناه بالنار، أيضا لا يُعرف المؤمن إلا بالابتلاء والامتحان، فعليك يا أخي بالصبر، قد تؤذى على دينك، قد يُستهزأ بك، وربما تُلاحَظ وربما تُرَاقَب، ولكن اصبر، واصدق وانظر إلى ما حصل من أولي العزم من الرسل.

٥- ومنها: أنه ينبغي للإنسان ألا يسأل النصر إلا من القادر عليه، وهو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: «مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ» [البقرة: ٢١٤].

٦- ومنها: أن المؤمنين بالرسل منهاجهم منهاج الرسل، يقولون ما قالوا ؛ لقوله تعالى: «حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ» [البقرة: ٢١٤].

٧- ومنها: تمام قدرة الله عز وجل لقوله تعالى: «أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ» [البقرة: ٢١٤].

٨- ومنها: أن الصبر على البلاء في ذات الله عز وجل من أسباب دخول الجنة؛ لأن معنى الآية: اصبروا حتى تدخلوا الجنة.

١٠- ومنها: تبشير المؤمنين بالنصر ليتقووا على الاستمرار في الجهاد ترقبًا للنصر المبشرين به.

١١- ومنها: الإشارة إلى ما جاء في الحديث الصحيح: «حُفت الجنة بالمكاره». رواه مسلم- لأن هذه مكاره، ولكنها هي الطريق إلى الجنة.

١٢- ومنها: أنه لا وصول إلى الكمال إلا بعد تجرع كأس الصبر؛ لقوله تعالى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ» [البقرة: ٢١٤].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

سارع أخي المسلم وأختي المسلمة

بالمشاركة بجزء من مالك ومن الزكوات أو الصدقات لنشر التوحيد من خلال المشاركة في الأعمال التالية:

طباعة كتيب يوزع مع مجلة التوحيد مجانًا تتكلف النسخة خمسة وسبعين قرشًا .. يطبع من كل كتيب مائة وخمسون ألف نسخة.

نشر تراث الجماعة من خلال طبع المجلة وتجليد أعداد السنة في مجلد واحد وذلك لعمل كرتونة كاملة ٣٨ سنة من المجلة.

دعم مشروع المليون نسخة من مجلة التوحيد - نسخة من المجلة لكل خطيب من خطباء الأوقاف والأزهر تصله على عنوانه.

نحن بانتظاركم .. يمكنكم المشاركة ودعم ذلك بعمل حوالة أو شيك مصرفي على بنك فيصل الإسلامي.

.. فرع القاهرة حساب رقم ١٩١٥٩٠ باسم مجلة التوحيد.

مفاجأة سارة

الآن

موسوعة التوحيد

ببلاش

- بشرى سارة لإدارات الدعوة في فروع أنصار السنة بأنحاء الجمهورية.
- الموسوعة العلمية والمكتبة الإسلامية في شتى العلوم ، أربعون عاماً من مجلة التوحيد .
- أكثر من ٨٠٠٠ بحث في كل العلوم الشرعية من مجلدات مجلة التوحيد.
- استلم الموسوعة ببلاش بدون مُقدَّم ؛ فقط ادفع ٧٥ جنيهاً بعد الاستلام على عشرة أشهر .
- من يرغب في اقتنائها فعليه التقدم بطلب للحصول عليها من إدارة الدعوة بالفرع التابع له أو من خلال قسم الاشتراكات بمجلة التوحيد بطلب مُزكَّى من الفرع .
- علماً بأن نموذج طلب الشراء والإقرار المرفق به من قبل الفرع موجود على موقع أنصار السنة وصفحة الفيسبوك الخاصة بكل من رئيس التحرير و صفحة مجلة التوحيد .
- هدية لكل من يرغب في اقتناء كرتونة المجلدات عبارة عن فهرس عام للمجلة وفهرس موضوعي يسلم بعد طبعه للفروع والمشتركين.

ومفاجأة أخرى

المجلد الجديد لعام ١٤٣٣ هـ

موجود الآن؛ سارع بالحصول عليه بـ ٢٥ جنيها فقط

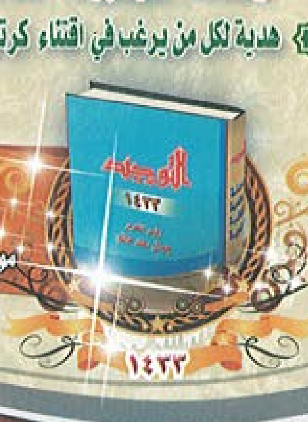

23936517